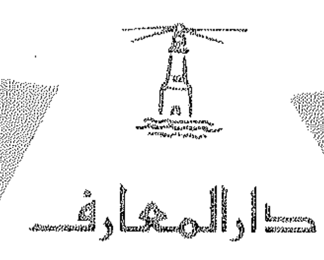
اقرأ

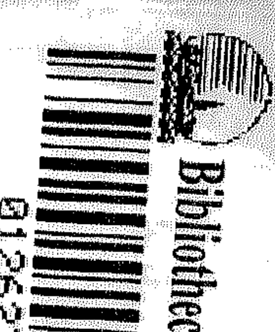
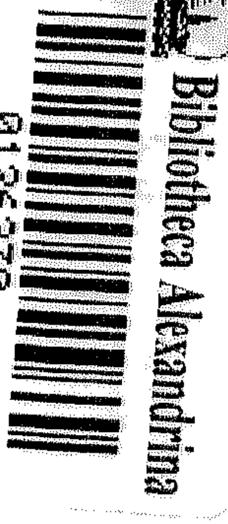
دكتور جاد طه

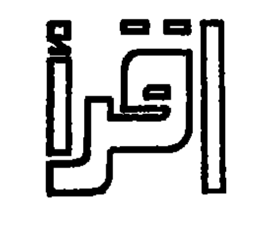


ألمانيا
إلى أين المصير؟



دار المعارف



Bibliotheca Alexandrina
0126230



[٥٥٧]

ألمانيا

إلى أين المصير؟

دكتور جاد طه

ألمانيا

إلى أين المصير؟



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الإستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تقديم

شاءت الظروف أن أسافر إلى كل من ألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية سنويا تقريبًا منذ عام ١٩٨٥، ففى ذلك العام اشتركت فى مؤتمر مؤرخى العالم فى مدينة شتوتجارت فى ألمانيا الاتحادية، وفى العام التالى (١٩٨٦) سافرت إلى مدينة ليبزج بألمانيا الديمقراطية، وعملت أستاذًا زائرًا بجامعتها، ومع نهاية عام ١٩٨٦ عملت أستاذًا زائرًا بجامعة كيل فى ألمانيا الاتحادية، ثم سافرت فى عامى ١٩٨٨، ١٩٨٩ للعمل كأستاذ زائر بجامعة ليبزج، وقدر لى فى تلك الأسفار أن ألتقى بالعديد من المفكرين، وأن أتبادل معهم الرأى بالنسبة لتطور الأمور، كما أن زياراتى وتنقلاتى بين فرانكفورت وهامبورج وكيل وغيرها فى ألمانيا الاتحادية، وكذلك تحركاتى المتعددة بين برلين الشرقية وليبزج وفيمار وأرفورت ودرسدن ولوتزن فى ألمانيا الديمقراطية ومعايشتى للمجتمع الألمانى بصفة عامة، كل ذلك جعلنى أستجيب فورًا للدعوة التى وجهت إلىّ من دار المعارف بأن أعد كتيبا عن ألمانيا.. ولم يكن الأمر سهلًا، فلألمانيا تاريخ طويل ممتد طيلة التاريخ القديم والوسيط والحديث والمعاصر.

وقد تناولت فى الفصل التمهيدى من هذا الكتيب أصل الألمان، وقيام

الدول الألمانية المتعاقبة، كما أننى فى الفصل الأول عالجت موضوع ألمانيا والإصلاح الدينى البروتستنتى، وخصصت الفصل الثانى لإعطاء صورة لحرب الثلاثين عامًا فى ألمانيا والتى دمرت ألمانيا تدميرًا امتدت آثاره نحو قرنين من الزمان، أما الفصل الثالث من هذا الكتيب فهو عن قيام الاتحاد الألمانى وقيام الإمبراطورية الألمانية ١٨٧١، وعالج الفصل الرابع موضوع ألمانيا والحرب العالمية الأولى. وقدم الفصل الخامس صورة لفلسفة النازية ودور ألمانيا فى قيام الحرب العالمية الثانية، أما الفصل السادس والأخير فقد عنونته «ألمانيا.. إلى أين المصير» باعتبار أن المتغيرات الدولية المعاصرة صارت تسير بطريقة مذهلة من ناحية سرعة تلك المتغيرات، بحيث صار المؤرخون يلهثون وراء الأحداث، ولا يستطيعون ملاحقتها وتحليلها، فكل يوم يمر يحدث فيه الجديد والذى كان حلما ثم أصبح حقيقة واقعة. ففى مدة وجيزة من عمر الزمن عبر الألمان الشرقيون سور برلين، والذى وقف صامدا ثمانية وعشرين عامًا يحول دون تلاقى الألمان الشرقيين بأقربائهم فى ألمانيا الاتحادية، ومع رياح التغيير التى جاءت بها البيريسترويكا من موسكو، ومع الوفاق بين القوتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ومع محاولة إقامة أوربا كدولة موحدة سنة ١٩٩٢، ومع استفحال اليابان كغول اقتصادى يهدد اقتصاديات العالم الغربى والشرقى معًا، مع كل هذه الأمور الهامة، والتى قد تحدد مصير تطور البشرية فى القرن القادم، مع كل ذلك، يحول الألمان فى ألمانيا الاتحادية، والأغلبية فى ألمانيا الديمقراطية مسألة عبور سور برلين ومسألة الإصلاحات وتحقيق الديمقراطية إلى مسألة جديدة قديمة.. الوحدة الألمانية أو الاتحاد الألمانى، وقد تتحقق الوحدة الألمانية من جديد طبقا لتلك المتغيرات السياسية السريعة، وعلى العالم ككل

حينئذ أن يعيد ترتيب سياساته واقتصادياته لمواجهة ألمانيا الموحدة.. ذلك العملاق العسكرى والاقتصادى الجديد.

جاد طه

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

وعميد كلية الآداب - جامعة عين شمس

ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط

تمهيد تاريخى

تعود الأصول الأولى للشعب الألمانى إلى القبائل الجرمانية التى يرجع تاريخها إلى ماقبل الميلاد بعدة قرون، وكانت هذه القبائل - وحتى حوالى عام ٥٠٠ ق.م- تقطن المنطقة الواقعة بين نهرى الأودر والإمز شمال ألمانيا الحالية، وتحيط بها من الشمال قبائل دنمركية ومن الشرق قبائل سلافية، ومن الجنوب قبائل الإليرر وقبائل الكلتيين.

وكانت تلك المنطقة الجرمانية - فى شمال ألمانيا الحالية- كثيرة الغابات قاسية البرودة والرطوبة، وكان من الطبيعى مع ازدياد السكان أن تضيق المنطقة بسكانها مما دفعهم مع حوالى عام ٥٠٠ ق.م إلى التوسع شرقا حتى وصلوا إلى نهر الفستولا، وغربًا حتى احتلوا وسط وجنوب ألمانيا الحالية، وفى عام ٥٠ ق.م وصل الجرمان إلى يسار نهر الراين الأعلى ثم إلى منطقة الراين الأوسط، ونهر الدانوب، وعرفت تلك المجموعة باسم الجرمان الغربيين، أما القبائل الجرمانية التى استوطنت آنذاك منطقة اسكندناوة فقد أطلق عليها اسم الجرمان الشماليين وأطلق على المجموعة الثالثة من القبائل الجرمانية التى استوطنت المنطقة الشرقية من ساحل البلطيق اسم الجرمان الشرقيين.

وكان الجرمانى جنديًا بطبعه، فهو لايرضى الخضوع للعدو، ولايرتضى لنفسه فى ميدان القتال الاستسلام أو الوقوع فى الأسر، ويفضل عليه الموت، فكان فى ميدان القتال يحارب حتى النصر أو الموت.

وقد عرفت الدولة الرومانية قدر المحارب الجرمانى، واستفادت من شجاعته، فجندت فى سلك العسكرية الرومانية الآلاف من الجرمان، الذين صارت لهم السيطرة على الجيش الرومانى والبلاط القيصرى.

وفى عام ٤٨١ م أصبح كلوفس ملكاً للفرنجة، وشاء القدر أن يلعب كلوفس دورًا خطيرًا فى تاريخ القبائل الجرمانية الغربية، فقد خطط لإنشاء دولة قوية، وبالفعل ضم كلوفس غاليا ونقل عاصمته إلى باريس، كماأنه تحول من الوثنية إلى الكاثوليكية، وبذلك عرف الألمان المسيحية واعتنقوها على المذهب الكاثوليكى، وهكذا كان لكلوفس الفضل فى تأسيس أول دولة ألمانية جعل باريس عاصمة لها وهى دولة الميروفنجيين.

وعين كلوفس لكل قبيلة من القبائل الخاضعة له دوقا، يدين له بالولاء، وأنعم كلوفس بمساحات واسعة من الأراضى على أعوانه. وبدأ النظام الإقطاعى يتخذ شكلاً واضحًا، إذ أن الكثير من الفلاحين فضلوا الانضواء تحت حماية السيد الإقطاعى ليضمنوا حمايته لهم، فتخلوا بذلك عن ملكيتهم الخاصة، ولم يلبث الإقطاعى أن أضحى يورث أبناءه من بعده اقطاعيته وما عليها؟

وبعد موت كلوفس فى عام ٥١١ م، قسمت مملكته بين أبنائه الأربعة، وسار أبناء كلوفس على سياسة والدهم التوسعية، فامتدت دولتهم فى منتصف القرن السادس الميلادى من المحيط الأطلسى غربا حتى غابات بوهيميا شرقا، ومن البحر المتوسط جنوبا حتى بحر الشمال شمالاً.

إلا أنه سرعان مابدأ يدب الضعف فى أسرة الميروفنجيين الحاكمة فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى، انقسمت الدولة الميروفنجية إلى ثلاثة أقسام: استراسيا فى الشرق، ونويستريا فى الغرب، وبرجونديا على جانبى نهر الرور، وأصبحت الدولة بصفة عامة تحت سلطة رجال البلاط الذين أصبحت كلمتهم هى الأولى فى الدولة. وبرز من بين رجال البلاط فى أستراسيا بيت الكارولنجيين، الذى جعل وظائف البلاط وراثية فى أبنائه فقط.

وبرز من أسرة الكارولنجيين رئيس للبلاط، فى أستراسيا عام ٢٢ ق.م اسمه بيبين، وخلفه فى رياسة البلاط بأستراسيا ابنه بيبين الثانى عام ٦٨١م، وتمكن بيبين الثانى من أن يصبح عام ٦٨٧ رئيسًا للبلاط فى نويستريا أيضا. وبذا. توحدت المملكتان ثانية تحت سلطته. إلى أن خلفه ابنه شارل مارتل الذى تولى حكم أستراسيا ونويستريا.

* وفى عام ٧٥١ خلف بيبين القصير أباه شارل مارتل فى رئاسة البلاط، وبالتالى تولى السلطة الأولى فى الدولة، برغم وجود الملوك الميروفنجيين، الذين أصبحوا مجردين من كل سلطة تمامًا، واستطاع بيبين القصير هذا فى نفس عام توليه رئاسة «البلاط أى عام ٧٥١ خلع آخر ملوك الميروفنجيين والمناداة بنفسه ملكًا.

والواقع أن بيبين كان قبل إعلانه لنفسه ملكًا على الفرنجة قد استشار البابا زكريا، وجاءت مشورة البابا مؤيدة له فى أفكاره.. فأقدم عليها.

ومات بيبين مؤسس الدولة الكارولنجية عام ٧٦٨، بعد أن قضى على دولة الميروفنجيين التى أسسها كلوفس عام ٤٨١، والتى أسست مملكة الفرنجة وحكمتها ثلاثة قرون، بل التى أنشأت أول دولة ألمانية تضم

فرنسا وأجزاء من مناطق مختلفة.

وترك بيبين بعد وفاته ولدين مات الأصغر وهو كارلومان سنة ٧٧١، فخلا الجو لأخيه شارلمان الذى حكم دولة الفرنجة ثلاثة وأربعين عامًا، وهو يعد بحق أعظم ملوك الفرنجة.

وقد هاجم شارلمان السكسون الذين عاشوا فى المانيا الحالية ولم ينتقلوا إلى الشواطىء البريطانية، وكان السكسون حينذاك متعصبين للوثنية، ويقطنون منطقة واسعة تمتد من الراين إلى نهر الإلبا. وفى عام ٧٧٢ هاجمت جيوش شارلمان بلاد السكسون وحطمت لهم أوثانهم، وأجبروهم على اعتناق المسيحية، ولكن السكسون بقيادة زعيمهم فيدوكند قاوموا مقاومة عنيفة مما اضطر جيوش شارلمان إلى الانسحاب.

ولكن شارلمان ذهب بنفسه على رأس جيش كبير، ووصل إلى الإلبا، واضطر فيدوكند إلى الهرب، ونظم شارلمان البلاد المفتوحة، وأمر بقتل كل من يحاول من السكسون تدمير الكنائس أو العودة إلى الوثنية. وبرغم ذلك فإن مقاومة السكسون لم تنته، مما اضطر شارلمان إلى إجلاء أسر سكسونية كثيرة بكامل أطفالها ونسائها لتقيم فى بلاد الفرنجة، وأحل محلها عائلات من الفرنجة، ولم تنته مقاومة السكسون للفرنجة إلا عام ٨٠٤.

وبرغم اعتزاز شارلمان بجرمانيته فإنه احتضن اللغة اللاتينية والحضارة الرومانية، وهكذا كتب لدولته التى شملت كل فرنسا الحالية وألمانيا وأجزاء من أسبانيا، وإيطاليا، وهولندا، وبلجيكا والنمسا، وبوهيميا ومورافيا كتب لتلك الإمبراطورية الكبيرة مجد لم تعرف مثله حتى ولا أيام عظمة الإمبراطورية الرومانية.

مات شارلمان فى عام ٨١٤ ودفن فى آخن بألمانيا الحالية وخلفه ابنه لويس الذى كان أضعف من أن يحكم الإمبراطورية الشاسعة، وبعد وفاته سنة ٨٤٠ قسم أبناؤه هذه الإمبراطورية فيما بينهم، وازدادت الدولة ضعفا على ضعف، وانقسمت إلى مئات الدوقيات المنفصلة.

وفى سنة ٩١٩ مات كونراد آخر ملوك الكارولنجيين، وانتخب نبلاء السكسون هنرى دوق سكسونيا ملكًا على ألمانيا.

وبانتخاب هنرى الأول من النبلاء ورجال الدين السكسون والفرنكيين (أو الفرنجة) أضحى ملكًا على هاتين المقاطعتين فقط، لأن باقى دوقيات ألمانيا لم تشارك فى عملية انتخابه، وعمد هنرى إلى إخضاع بقية الدوقيات الألمانية لسلطانه،ولكن دوقيات جنوب ألمانيا رفضت الخضوع له أو الاعتراف به ملكًا.

وتقدم هنرى بجيوشه لإخضاعهم ولكنهم آثروا الصلح معه، فاعترف به دوق سوابيا، وتبعه دوق بافاريا، ثم دوق اللورين وبذلك توحدت ألمانيا مرة أخرى تحت حكم الملك هنرى، وأضحت تمتد من الراين غربًا إلى جبال الهرتز شرقا، لتضم كل الشعوب المتكلمة بالألمانية، عدا الفلمنك الذين ظلوا تابعين لدولة الفرنجة الغربية،

ومات هنرى وخلفه أبنه العظيم أوتو، الذى انتخبه كبار رجال الدولة عام ٩٣٦، واتخذ أوتو من شارلمان مثالاً له، وسلب سلطات الأدواق الألمان، ليعطيها لموظفين خاضعين لسلطته، واستعان برجال الدين لتأكيد سيطرته على ممتلكاته، وبعد أن وطد أوتو الأول دعائم حكمه فى ألمانيا، عبر بجيوشه جبال الألب، وضم مملكة لومبارديا فى شمال ووسط إيطاليا وأسس بذلك الإمبراطورية الألمانية المعروفة باسم الإمبراطورية

الرومانية ذات القومية الألمانية والتى استمرت حتى عام ١٨٠٦، وفى عام ٩٦٢ ألبسه البابا يوحنا الثانى عشر تاج الإمبراطورية.

وبعد وفاة أوتو الأول عام ٩٧٣ خلفه ابنه أوتو الثانى الذى حكم عشر سنوات تعرضت فيها الدولة لهجمات السلافيين، وبموته فى عام ٩٨٣ خلفه ابنه أوتو الثالث وهو طفل فى الثالثة من عمره، وتحت وصاية أمه وجدته، وتوفى أوتو الثالث عام ١٠٠٢ بعد نقل عاصمة الدولة إلى روما، وتمكن هنرى الثانى آخر ملوك الدولة السكسونية من استعادة ما فقدته، الدولة شرقى الألبا، ومن تقوية حدوده الشرقية مع الهولنديين وبوفاته سنة ١٠٢٤، انتهى حكم الأسرة السكسونية التى بدأها هنرى الأول سنة ٩١٩، وانتخب كبار رجال الدين والدوقات كونراد الثانى دوق فرانكونيا ملكًا على ألمانيا عام ١٠٢٤.. وكان كونراد من الفرانكيين الساليين، لذلك تسمى تلك الأسرة الملكية أيضا باسم الأسرة السالية، وظلت هذه الأسرة فى الحكم نحو مائة عام (١٠٢٤ - ١١٢٥) وتوالى على الحكم فيها هنرى الثالث وهنرى الرابع وهنرى الخامس، ويعتبر عصر هذه الأسرة عصر الخلافات مع الكنيسة.

وبوفاة هنرى الخامس ١١٢٥ دون أن ينجب ولدا، اختار الناخبون الملك لوثير سبلنبرج وهو سكسونى، وأثار انتخاب لوثير تأثرة أسرة الهوهنشتاوفن التى كانت تعتقد بأحقيتها فى الملك وصار النزاع مستمرا بين أسرتى الجولفيين والهوهنشتاوفين، وإلى أن تولى فردريك العرش عام ١١٥٢، وكان من أسرة الهوهنشتاوفن وإن كانت أمه من أسرة الجولفيين، وهكذا عاد السلام بين الأسرتين. وفردريك الأول (بربروسا) هو الذى قاد جيشه إلى الشرق فيما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة

(١١٨٩-١١٩٢) ولكنه لم يصل إلى بيت المقدس فقد مات فى آسيا الصغرى غرقا عام ١١٩٠.

وبموت فردريك الأول تعاقب على العرش هنرى الثانى، ثم فردريك الثانى، ثم كونراد الرابع، ثم كونرادين الذى قتل سنة ١٢٦٨، وبمقتل هذا الأخير انتهت أسرة الهوهنشتاوفن التى أسسها فردريك بربروسا عام ١١٥٢.

وبعد انهيار هذه الأسرة الحاكمة الأخيرة، عاشت الدويلات الألمانية فترة من الاضطراب، إلى أن تحدد عدد الأفراد الذين لهم حق انتخاب الملك بسبعة، ثلاثة من رجال الدين، وأربعة من الأمراء، واجتمع السبعة فقط لانتخاب الملك، وسموا منذ ذلك الحين بالأمراء الناخبين، وتم اتفاقهم على انتخاب رودلف من الهابسبورج قيصرًا لألمانيا.

وقد عمل رودلف منذ انتخابه سنة ١٢٧٣ على جمع السلطة فى يده، واشتهر بعدالته بين الناس فأحبوه، كما أنه أعاد الأمن إلى ربوع البلاد، ونعمت البلاد الألمانية بفترة فى الهدوء والاستقرار حتى وفاته عام ١٢٩١.

وبوفاة رودلف بدأت المتاعب مرة أخرى، وأصر الناخبون السبعة على اختيار ملوك ضعاف حتى لاتقيد سلطتهم، وهكذا قسمت ألمانيا بين الأمراء السبعة، وعدد ضخم من الأمراء والأساقفة، ولقد مثلت فى الرايشستاج (مايشبه البرلمان الألمانى) حينذاك ٣٢٤ دويلة ألمانية ولم يعد للملك أى سلطة عليها. ورغم أن الملوك منذ عام ١٤٣٧ وحتى ١٨٠٦ كانوا جميعا من أسرة الهابسبورج، إلا أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا.

الفصل الأول

ألمانيا والإصلاح الدينى البروتستنتى

تضافرت عدة عوامل على قيام هذه الحركة، نذكر منها تدهور الكنيسة الكاثوليكية فى روما، وروح النقد والتحرر من القيود التى فرضتها الكنيسة على حرية البحث والتفكير، وموقف حكام ألمانيا فى الوحدات السياسية العديدة، وهو موقف، أملته رغبتهم فى التخلص من سيطرة كنيسة روما وتدخل البابا من ناحية، وتطلعهم إلى الاستئثار بأموال الكنيسة، وممتلكاتها الشاسعة من ناحية أخرى، وصكوك الغفران التى شكلت السبب المباشر فى قيام الحركة الدينية التى حمل لواءها مارتن لوثر وتطورت تطورًا سريعًا إلى حركة دينية ثورية.

فالإصلاح الدينى إذا اتخذ شكل انتقاض للروح العلمانية على ادعاءات الإكليروس والامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ومن ناحية أخرى كانت حركة إحياء دينى ومحاولة للعودة إلى الأساليب الأولى التى درجت عليها الكنيسة المسيحية، ويرجع حدوث الإصلاح الدينى فى الوقت الذى حدث فيه من ناحية إلى إحساس الناس بأن المساوئ المتعلقة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدت إذ ذاك على جانب كبير من

الخطورة، ويرجع من ناحية أخرى إلى أن اتخاذ أسلوب جديد فى المسيحية أبسط وأكثر روحانية وهى أن الرغبة التى استحوذت فى ذلك الوقت على عقول كثير من المتحمسين - قد ظهرت فى نفس الوقت الذى تطلع فيه بعض الأمراء العلمانيين إلى محاولة استقطاع بعض من ثروة الكنيسة بعد أن لمسوا قصور مصادر دخلهم التقليدية عن الوفاء بحاجات الدولة المتزايدة.

ورغم أن الحركة الثقافية فى القرن السادس عشر كانت حركة قائمة بنفسها متميزة تماما عن الحركة البروتستنتية، فإنها كانت من العوامل التى ساعدت على إنجاحها، فقد أضعفت عناصر التحصيل العلمى الجديد الميل التقليدى إلى تقديس الكثير من العقائد والتقاليد والعادات التى كانت سند الكنيسة الرومانية منذ زمن بعيد، واستطاع الرجل العلمانى أن يقرأ لنفسه بعد أن أصبح فى مقدوره أن يتعلم الإغريقية والعبرية، وبذلك أمكن له أن يتخطى اللغة اللاتينية - وهى اللغة الرسمية للاكليروس الرومانى - إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس: فلم تعد نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع هى النسخة الوحيدة، إذ كانت هناك نصوص أقدم منها وأقدس يجهلها معظم الإكليروس اللاتين، ولكنها فى متناول أولئك الذين يبحثون عن المعرفة، ومن هنا ظهرت فكرة أن العلمانى الفاضل يمكنه الاتصال بربه مباشرة دون وساطة من الكهان.

مارتن لوثر:

ولد مارتن لوثر فى العاشر من نوفمبر ١٤٨٣ فى آيزلبين Eiselben وهى بلدة صغيرة فى مقاطعة سكسونيا بألمانيا، وكان والداه فقيرين

يشتغلان بفلاحة الأرض وقضى طفولته وصباه فى حياة تزاحمت فيها عليه أسباب التعاسة والفقر والبؤس، ولكن أتيح له حين بلغ أشده أن يدرس القانون فى جامعة إرفورت Erfurt وكانت هذه الجامعة قد أدخلت فى مناهجها الدراسات الإنسانية القديمة كما نظمت فى رحابها دراسات دينية متعمقة، وظل لوثر فى هذه الجامعة أربع سنوات وحصل على درجته الجامعية، إلا أنه غير طريقه فجأة فدخل فى عام ١٥٠٥ ديرا يتبع طائفة القديس أوجستين وأصبح راهبًا ينتمى إلى هذه الطائفة الدينية. وتوفر على العبادة، وأخذ نفسه بأسباب الزهد والتقشف وتعذيب النفس ابتغاء التخلص من الخطايا، وعكف على دراسة الكتب المقدسة دراسة مستفيضة.

وأتيحت لمارتن لوثر زيارة روما حين أوفد فى عام ١٥١١ فى مهمة رسمية ممثلا لطائفة القديس أوجستين، وفى أثناء مهمته هذه زار كل الأماكن المقدسة فيها، فهاله انهيار المعايير الأخلاقية لدى رجال الدين ومن بينهم البابوات وانغماسهم فى حياة التبذل والملذات، وقد علق على ما رآه فى روما بجملة معبرة وهى «أن من يذهب إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التى تصيبه من جراء مايرى هناك». وعاد لوثر إلى وتنبرج وقلبه مفعم بالسخط على رجال الكنيسة. وفى العام التالى (١٥١٢) عين لوثر أستاذا لكرسى اللاهوت فى جامعة وتنبرج، وجعل رسالته الأولى هى التدريس والوعظ، وقد أصاب فى كلا الميدانين نجاحًا رائعًا.

وفى عام ١٥١٧ هبط مدينة وتنبرج راهب يدعى حنا تتزل Johan Titzel من أتباع الطائفة الدينية التى تسمى الدومنيكان - جاء لبيع صكوك الغفران. وكان مقررًا أن يذهب جزء صغير من حصيلة البيع إلى

كبير أساقفة ماينز، بينما يحول الجزء الأكبر إلى خزانة الباب ليو العاشر إسهاما فى نفقات المبنى الجديد لكنيسة القديس بطرس فى روما، وقد كتب أحد المعاصرين «أنه ليس من المعقول ماذهب إليه هذا الراهب الجاهل الأحمق حين قال للناس : إنهم إذا ما ساهموا عن طواعية واشتروا الثواب وصك الغفران، فان تلال سانت أنابورج St. Annaburg ستتحول إلى كتلة هائلة من فضة صافية، وأنه ما أن سمع رنين العملة فى الصندوق حتى تكون روح من دفعت الأموال من أجله فى طريقها إلى الجنة، وبلغت الوقاحة بهذا الراهب مداها حين قال أيضا مخاطبًا جموع الفلاحين إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل، وهكذا تردى هذا الراهب الأحمق فى هاوية سحيقة مالها من قرار وتطاول على العذراء المباركة مع مالها من تقدير عميق فى نفوس الملايين من المسيحيين والمسلمين، وحرض على ارتكاب الخطايا مع زعم بإعفاء مسبق من العذاب.

والغفران كما عرفه توماسٍ أكونياس Aquinas من أعلام اللاهوت فى العصور الوسطى. يقوم أصلًا على ضرورة الندم أو التوبة والاعتراف والجزاء والتفكير. والجزاء أو التكفير بالصلاة والصوم والزكاة. أما فكرة أن البابا قادر على إصدار صكوك غفران فهى من النظرية القائلة بأن القديس بطرس وخلفاءه قد خلعت عليهم ميزة توزيع فيض لا ينضب من الثواب على المؤمنين، وهذا الفيض من الثواب يرجع أصلا إلى تضحيات المسيح، ثم زاد على مر السنين بالأعمال الخيرة التى قامت بها أجيال متعاقبة من المسيحيين المؤمنين، وقد استعاض البابوات عن الجزاء أو التفكير بقواعده الثلاث، بعمل آخر كالاشتراك فى حرب صليبية أو الحج إلى روما فى أول كل مائة سنة جديدة، ويسمى الغفران الذى يعطى

بهذه المناسبة الأخيرة بالغفران اليوبيلى، ثم توسع البابا ليو العاشر فى ١٥١٥ فى تطبيق مبدأ التعويض أو الاستعاضة عن الجزاء، حتى صارت هذه الاستعاضة تشمل مجرد الحج إلى روما، وزيارة قبور القديسين، وتقديم الهبات إذا تعذر الحج، كما قرر هذا البابا أيضا أن يسرى مبدأ التعويض عن الجزاء أيضا على الذى يعذبون فى النار، أى الأموات مثل سريانه على الأحياء، وأما أركان الغفران الأخرى، وهى الندم أو التوبة والاعتراف، فقد نسيها القوم بسرعة. وخصوصا عندما صار البابوات يعهدون الى البنوك والمصارف فى ألمانيا- بيت فوجرز Foggers فى أوجزبرج - بعملية ترتيب اليوبيلات أو تحصيل هبات الأموال، فأدى تدخل المصارف والبنوك إلى نقل مسألة التعويض عن الجزاء الذى لابد من حصوله على كل حال بجانب ركنى الغفران الآخرين التوبة والاعتراف، إلى مجرد عملية تجارية، يكفى الإنسان أن يدفع مبلغا من المال حتى يحصل على شهادة صك الغفران، ولم يكن هناك أنسب لخزانة مرتبكة من أن تحوز موردًا سخيًّا دائمًا لا يبذل فيه صاحبه أى جهد ولايساوره فى المحافظة عليه أى قلق، ويكون قادرًا باستمرار على استخدامه لتحقيق فوائد مالية. وحين أسفرت عن نفسها المغريات المالية الكامنة فى ذلك الكنز الروحى، تبددت الأحكام الأخلاقية التى كانت ملازمة لاستخدامه أصلا، ولم يعد هناك إصرار على الاعتراف بالتوبة، بل أصبحت العملية عملية تجارية، واغتصب البابا ليو العاشر ماكان مفروضًا أنه من صفات الله وحده، فلم يقصر دعواه على أنه قادر على التجاوز عن العقوبة على الخطيئة فى الحياة، بل إنه قادر على أن يمحو الخطيئة ذاتها، وكانت نتائج هذه العملية من الوجهة الخلقية خطيرة، وخصوصًا فى عصر انحط فيه مستوى الأخلاق، لأن المذنب إذا استطاع أن يشترى صكًا من صكوك

الغفران محيت كل خطاياه ونال الغفران، ونتيجة لذلك فإنه كثيرًا ما كانت تشترى وتباع هذه الصكوك بالجملة وسلفا لغفران الخطايا.. خطايا الماضى وخطايا المستقبل.

وكان لوثر قد توصل منذ عام ١٥١٥ إلى المعتقدات الأساسية التى آمن بها وألهمته كل ماقام به فى السنوات التالية، وقد جرب الصلاة والصوم وصنوف رياضة النفس فلم تجلب له راحة ولاخففت له مثقال ذرة من عبئه المبرح بأوزار خطاياه، وتوصل آخر الأمر إلى أن الإيمان هو الوسيلة لعبور تلك الهوة الشاسعة بين الله والإنسان. فإن الإنسان إذا كان مؤمنا، فأنه يستطيع الخلاص بالرغم مما استقر فى ذاته من شرور مهلكة. أما الحج والاحتفالات الدينية والهمس فى المسابح وإيقاد الشموع فلا تعدو جميعا أن تكون عقبات فى طريق الخلاص.

فالإيمان هو شرط الغفران. والغفران هو الثواب على الايمان. أما الغرض من الصلاة والعبادة بأنواعها فليس التخلص من الخطايا ولكن لإسداء الحمد والشكر للإله الرحيم، وقد اهتدى لوثر إلى هذه العقيدة من دراسته للكتاب المقدس، ومن تعاليم القديس أوجستين (٣٥٤- ٤٣٠) وتعرف هذه العقيدة باسم عقيدة التبرير بالإيمان.

ونعود إلى أمر حنا تتزل الراهب الذى هبط وتنبرج فى عام ١٥١٧ والذى امتاز بالإسراف فى الحماقة والتهور والجهل حين أخذ يلوح بصكوك الغفران فى الهواء وهو يقول «إن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها، فهذه الغفرانات أو صكوك البابا كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل».

وقد أثارت هذه التصريحات الحمقاء، مكامن السخط فى نفس مارتن

لوثر وهو القوى فى عقله ودينه، وهكذا كانت هذه الحادثة هى السبب المباشر لتحركه لمهاجمة صكوك الغفران، وانتهز فرصة اجتماع الأهلين على عادتهم فى كنيسة وتنبرج فى ٣١ أكتوبر ١٥١٧، وهو يوم الاحتفال بعيد الشهداء، وكان مقررًا أن يتم الاحتفال فى نفس اليوم بذكرى تدشين كنيسة وتنبرج، وعلق على باب الكنيسة احتجاجاً مفصلاً يتألف من خمس وتسعين حجة ضد صكوك الغفران.

وفى هذا الاحتجاج لم يحمل لوثر فقط على بيع صكوك الغفران، بل حمل كذلك على الغفران نفسه كما كان معمولا به فى الكنيسة الكاثوليكية منذ قرون، أى أن لوثر هاجم الغفران بقواعده المعروفة: التوبة، الاعتراف، الجزاء، ثم أخذ يبسط عقيدة التبرير بالإيمان التى قال فى تفسيرها إن الغفران مربوط فقط بالايمان برحمة الله، فلا يستطيع البابا التدخل فى غفران الذنوب، ثم وجه لوثر الدعوة لمناقشته فى هذه الحجج لكل من شاء ذلك من العلماء، ولم يمض أسبوعان فقط على هذا الحادث، حتى كان قد ذاع فى كل المانيا نبأ هذه الحجج الخمس والتسعين التى علقها لوثر على باب كنيسة وتنبرج، ومنذ ذلك الحين بدأ النزاع بين لوثر وبين الكنيسة الكاثوليكية.

وفى أثناء مناقشة لوثر مع حنا تتزل وغيره من المؤيدين لكنيسة روما، نقد لوثر نظام الكنيسة وسلطتها العليا بل تعاليمها، وصرح بأن الكتاب المقدس وحده هو القانون الذى يجب الاعتماد عليه فى تفسير العقائد، وفى جميع المسائل المختلف عليها.

واتخذ لوثر بعد ذلك عدة خطوات متتالية لتنفيذ الإصلاح الدينى، فوجه فى عام ١٥١٩ الدعوة إلى حكام الولايات الألمانية من الأمراء ومن

إليهم كى يتزعموا هذه الحركة الإصلاحية وكان معنى ذلك أن لوثر قد صحت عزيمته على إرغام الكنيسة على قبول الإصلاح على أيدى أناس من غير رجالها، أى إصلاح الكنيسة من الخارج طالما أنها لم تستجب للدعوات المتكررة بإصلاح نفسها بنفسها. وكان عدد كبير من حكام المقاطعات فى المانيا معدًا من قبل لتأييد هذه الحركة الإصلاحية بل والترحيب بها قلبا وقالبا نظرا للمكاسب السياسية والمادية التى تعود عليهم من ورائها.

وقد حدد لوثر عدة أسس أو مبادئ لحركة الاصلاح الدينى التى دعا إليها وكان من بين هذه المبادئ فى رسالته الأولى:

أولا: إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية.

ثانيا: ليس للبابا الحق فى احتكار تفسير الانجيل.

ثالثا: إباحة الزواج للقسس، وقد تزوج لوثر فيما بعد سنة ١٥٢٥ بإحدى الراهبات واسمها كاترين بورا Catherine Bora.

رابعا: إباحة الطلاق للمسيحيين.

خامسا: عدم إنشاء أديرة جديدة وإلغاء عدد من الأديرة القائمة وتحويل نزلائها إلى الحياة المدنية، ثم أعلن الغاء الديرية والرهبنة.

سادسا: إلغاء الحج إلى روما.

وهكذا هاجم لوثر الكنيسة فى سلطاتها وفى عقيدتها معاً. وقد أجابت الكنيسة على هذا الهجوم بأن أصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان ضد لوثر فى ديسمبر ١٥٢٠ واستند البابا إلى أن لوثر يعتنق آراء جعلت منه مارقًا على المسيحية، وكان جواب لوثر على ذلك أن نشر رسالته الثانية

عن الأسر البابلى للكنيسة لإظهار ضعف البابوية ومفاسد الكنيسة، ثم أحرق الحرمان علنا فى ساحة كنيسة وتنبرج فى ١٠ ديسمبر ١٥٢٠، وبذلك انقطعت كل صلة تربطه بالكنيسة، وصار الانفصال بينه وبين الكنيسة انفصالا تاما كاملا.

وعندئذ طلب البابا من شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أن يقتص من لوثر وأن ينفذ قرار الحرمان الصادر ضده. وهكذا دعى لوثر إلى ورمز لمقابلة الإمبراطور الشاب والمثول أمام أول مجمع إمبراطورى فى يناير عام ١٥٢١ لمناقشته فى آرائه، وأصر لوثر أمام هذا المجمع على هذه الآراء، وعندئذ اعتبر خارجا على السلطة القائمة، وحرم من حقوقه المدنية. ورغم أن البابا والإمبراطور قد تحالفا لاختطافه والقضاء على آرائه، فإنه ظل لبضع سنوات أخرى معبود جانب كبير من الشعب الألمانى، أما مرسوم ورمز، الذى جعل منه خارجًا على القانون، فقد كان منذ البداية قرارا أجوف.

وتدين اللوثرية بالكثير لسياسى وبحاثة وجامعة، وكان فردريك الفاضل منتخب سكسونيا هو السياسى الذى أعطى هذه الحركة الجديدة من التشجيع ماكانت فى أشد الحاجة إليه فى المراحل الحاسمة الأولى من تاريخها فحين أصدر كل من البابا والإمبراطور قرار الحرمان ضد لوثر، تقدم فردريك وحماه من أعدائه ودبر له مخبأ بعيدًا عن متناول أيديهم فى قلعة وارتبرج. وقد أقام لوثر فى هذا المخبأ مدة سنة تقريبًا ترجم خلالها الإنجيل إلى اللغة الألمانية وكان لهذه الترجمة أثر كبير فى إحياء الأدب الألمانى، كما أنها جعلت اطلاع عامة الناس على كتابهم المقدس سهلا ميسورًا بعد أن كان الدين وقفا على القسس.

هذا هو السياسى، أما البحاثة فكان فيليب ملانكتون Philip Melankton وهو ذلك البحاثة الهادئ المتعمق فى الدراسات الإغريقية الذى أمد الدين الجديد فى ديسمبر عام ١٥٢١ بأول كتاب له فى اللاهوت وهو، «كلام معاد» الذى كان أول كتاب ظهر فى الكنيسة اللاتينية منذ قرون معتمدًا على الإنجيل وحده. ويرجع معظم الفضل إلى ملانكتون هذا فى وضع فلسفة واضحة للإصلاح الوثرى.

أما الجامعة فكانت جامعة وتنبرج التى مالبثت أن أصبحت المهد الأساسى التعاليم اللوثرية، وإليها جاء طلاب العلم من جميع أنحاء ألمانيا بحيث غدت بمثابة المركز العظيم للأدب اللوثرى.

وإذا كانت الظروف السياسية التى أحاطت بألمانيا ساعدت على انتشار الحركة اللوثرية. فان الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى سادت أرجاء ألمانيا، جعلت الحركة تأخذ فى مسارها اتجاهات معينة، فقد رأى بعض الألمان فى الحركة اللوثرية فرصة لتنفيذ آراء خاصة كانوا يؤمنون بها وجاءت هذه الحركة التحررية الدينية فشجعتهم على المجاهرة بها، ورأى غيرهم -وهم الأغلبية- فى الحركة اللوثرية فرصة مواتية لتحقيق مغانم لهم أو تحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية وحدث كذلك أن تطرف بعض المتحمسين لهذه الحركة فى دعوتهم لها، مما أدى إلى وقوع اضطرابات وجعل حركة الإصلاح تقترن بالعنف والفوضى فى كل مكان تقريبا.

وكان منشأ هذا التطرف أن ألمانيا فى ذلك الوقت، كانت تمر بأزمة اجتماعية واقتصادية وروحية نجمت عن انهيار العصور السطى بجميع ماكانت تنطوى عليه تلك العصور من مبادئ اجتماعية واقتصادية

وسياسية ودينية فى أواخر القرن الخامس عشر، وهكذا وقعت مصادمات خطيرة أريقت فيها الدماء وانزعج لوثر من هذا التطور الذى لحق بحركته، وكان حريصا على تحريرها من الأغراض الأخرى، واضطر إلى الخروج من مخبئه لكبح جماح الجماهير.

وأما هذه الحركات المتطرفة فأهمها ثلاث:

(أ) المطالبون بإعادة التعميد

وقد ظهرت هذه الحركة فى زويكو Zwiekan فى سكسونيا فى عام ١٥٢١، وقام بها جماعة من البروتستنت المتطرفين، وطالبت هذه الطائفة بعدم الاكتفاء بتعميد الأطفال والتعميد هو تغطيس الطفل فى الماء ثلاث مرات على اسم الثالوث المقدس وهو الأب والأبن والروح القدس وقالت هذه الطائفة إن تعميد الأطفال وهم فى سن مبكرة لايتمشى مع تعاليم الإنجيل فطالبت عام ١٥٢٥ بإعادة تعميدهم مرة أخرى حين يبلغون الحلم،وكانت حجة أفراد هذه الطائفة أن أركان التعميد الدينية الصحيحة لا تتوفر إلا فى التعميد المتأخر وقد أطلق على رجال هذه الطائفة المطالبون بإعادة التعميد أو المعمودية. ونادوا بآراء أخرى غير إعادة التعميد وإن ظلت التسمية الأولى عالقة بهم. وكان على رأس هؤلاء توماس مونزر Munzar وقد تطرف دعاة هذه الحركة، ووقعت الاعتداءات والاضطرابات مما عرض الاصلاح الدينى ذاته للخطر، فاضطر مارتن لوثر إلى الخروج من مخبئه كى يدعو هؤلاء المتطرفين إلى التزام الهدوء والحكمة وساعده فى ذلك فيليب ملانكتون.

(ب) حرب الفرسان:

اعتاد الفرسان وهم صغار النبلاء - أن يعيشوا على الحرب وأن يحققوا لأنفسهم عن طريقها مكاسب وامتيازات، وفى بداية العصور الحديثة كانوا قد فقدوا الكثير من هيبتهم وقوتهم وامتيازاتهم بسبب انحلال النظام الإقطاعى بوجه عام فى غربى أوربا، وإن كان مركز كبار الأمراء حكام الوحدات السياسية فى ألمانيا لم يتأثر بهذا الانحلال ،ولما ضعفت شوكة الفرسان كطائفة ازدادوا عتوا كأفراد وكانوا يهاجمون الفلاحين وينهبون ثروات التجار حتى أصبحوا أخطر طبقة فى ألمانيا تهدد الحياة الاقتصادية وتعصف بالأمن والسلام فى ربوع البلاد. ولما قامت الحركة اللوثرية، وجدوا فيها فرصة لاسترداد نفوذهم وثرواتهم وكان لوثر قد نادى بتجريد الكنيسة من أملاكها كوسيلة لإرغامها على الرجوع إلى سيرتها الأولى من البساطة والبعد عن أسباب البذخ والمجون واتخذ الفرسان من آراء لوثر ذريعة لمهاجمة الكنيسةوالاستيلاء على أملاكها من ناحية والتحلل من سيطرة الأمراء عليهم من ناحية أخرى ومن ثم قاموا بحركة ثورية عنيفة أضفوا عليها الجانب الدينى، فاقتحموا الكنائس وحطموا ماكانت تزخر به من تماثيل وصور وزخارف، وهجموا على الأديرة وأهانوا من بها من الرهبان والراهبات.

وقد تزعم هذه الثورة فارسان هما فرانز فون سيكنجن Franz Von Sickingen وصديقه الريخ فون هتن Ulric Huiten وقد وضع الاثنان خطة حربية للهجوم على مدينة تريف Treves (أوترابر Crier واستنجدا بالمدن المجاورة إلا أنهما فشلا فى ذلك، وانتهى الأمر بمقتل فون سيكنجن

وهرب أولريخ هتن إلى سويسرا سنة ١٥٢٣ ومات بها. ومنذ ذلك الحين استبعدت طبقة الفرسان كعامل أوقوة ذات أهمية فى ألمانيا.

(جـ) ثورة الفلاحين:

كانت ثورة الفلاحين هى أعنف الحركات الثلاث على الإطلاق وقد قام بها الفلاحون الألمان، ولم تكن هذه الثورة هى الأولى من نوعها فى ألمانيا فقد سبق أن قامت ثورات على شاكلتها قبل ظهور الحركة اللوثرية لدفع المظالم التى انهالت على الفلاحين فى ظل الأوضاع السائدة فى المجتمعات الألمانية وقتذاك.

وعلى أية حال، فقد قام الفلاحون بسلسلة من الثورات واستمالتهم دعوة لوثر إلى الحرية والإنسانية والإخاء الجرمانى، والذين كانوا عند تأييدهم الإصلاح الجديد يرجون الخلاص من العبودية والرق، وعلى ذلك فقد استرشد الفلاحون فى اعتناق اللوثرية باعتبارات اجتماعية واقتصادية ناجمة عن موجة التذمر الشديد التى انتشرت بينهم وانتهز المطالبون بإعادة التعميد Anabaptists وجود هذا التذمر فتصدوا لزعامة الفلاحين. وعلى ذلك فإن ثورة الفلاحين سرعان ماصارت تحت قيادة توماس مونزر Munzer زعيم المطالبين بإعادة التعميد حربًا موجهة ضد كل سلطة قائمة، كما أصبح الغرض منها هو إقامة مجتمع مسيحى جديد على أساس المساواة المطلقة وشيوعية الملكية.

واشتد عنف هذه الثورة فى التيرول وفى أوستريا حيث كانت أغلبية سكانها من الفلاحين، واستمرت الثورة فى هذين الاقليمين حتى عام ١٥٢٦ كما اشتد تذمر الفلاحين أيضا فى الأقاليم الجنوبية الغربية وكان مونزر يتمتع بنفوذ عظيم هناك.

ومن العوامل التي أدت إلى استفزاز الفلاحين ارتفاع أسعار حاجيات المعيشة ارتفاعا فاحشا، واستغل الإقطاعيون هذا الغلاء وأصروا على أن يتقاضوا ضرائبهم عينا من نفس المحاصيل الزراعية، ومن المعروف أن الضرائب قد تؤدى عملاً أو عينًا أو نقدًا، وقد استهدف الأمراء الإقطاعيون الألمان من أتباع هذا الأسلوب تحقيق مزيد من الأرباح، لأنهم يستولون على المحاصيل ثم يبيعونها بأغلى الأسعار للطبقات الكادحة.

وقد وضع الفلاحون بيانًا صدر فى مارس ١٥٢٥ ضمنوه مطالبهم واستهدف هذا البيان إلغاء رق الأرض وتحديد القيمة الإيجارية للأراضى الزراعية تحديدا عادلاً، وتحديد ضريبة العشور بحيث تكون مقصورة على الحبوب وإلغاء ما عداها، وتقرير حق كل جماعة فى اختيار وتعيين القسس فى الكنائس والأساقفة فى الإبرشيات وتحديد الخدمات الإقطاعية التى يؤديها الفلاحون لأمراء الإقطاع، وتخطيط جديد لشئون التربية والتعليم بحيث تتمشى مع التعاليم الحقة التى جاء بها الدين المسيحى. وعلى غرار فعل مارتن لوثر، وطالب الفلاحون أن تنظر مطالبهم فى ضوء ماورد فى الكتاب المقدس، وأكدوا أنهم لن يكونوا بعد ذلك عبيدًا لأن المسيح جعلهم أحرارا.

وكانت هذه المطالب تتسم بطابع الاعتدال والرغبة فى الاحتكام إلى قواعد الدين كما جاءت فى الكتاب المقدس وقد اتخذت ثورة الفلاحين شعارًا لها «استغاثة بعدالة الله»، وقد اقترنت هذه المطالب بهياج عظيم سرعان ما تطور إلى حرب أهلية أطلق عليها «حرب الفلاحين»

وقد ظفرت ثورة الفلاحين بنجاح ساحق فى مراحلها الأولى وسقطت

مدن هامة فى أيدى الثوار وأزهقت أرواح كثيرة، وقد رأى لوثر فى هذه الثورة خطرًا يتهدد حركته الإصلاحية الدينية لأن مطالب الثوار هى مطالب مادية واقتصادية واجتماعية والمبادئ التى نادوا بها كانت فى نظر لوثر مطالب ومبادئ لاتمت بصلة لحركته الإصلاحية الدينية ومن شأنها لذلك أن تعرض هذه الحركة الإصلاحية لأخطار شديدة. فوصف الثوار بأنهم «الفلاحون المخربون» والذين يسفكون الدماء، وأخذ لوثر يخطب فى الناس ويطلب من الأمراء ضرب الثورة بكل عنف، وهكذا اجتمعت قوة كبار الأمراء والفرسان ضدثورة الفلاحين، وكانت مدفعيتهم تحصد الثوار حصدًا وألقى القبض على زعماء الثورة وأعدموا بعد عمليات من التعذيب الوحشى، ولم ينته عام ١٥٢٥ حتى كانت الثورة قد دمرت تماما بعد أن بلغ عدد القتلى من الفلاحين نحو مائة ألف.

وبالقضاء على هذه الحركات الثورية، تخلص لوثر من أكبر الأخطار التى هددت مذهبه الجديد فى بداية انتشاره، ومن الواضح أن الموقف الذى وقفه لوثر من ثورة الفرسان وثورة الفلاحين إلى جانب رسائله وكتاباته تظهر الوسائل التى أراد لوثر اتخاذها لإصلاح الكنيسة، وهى أنه يرغب فى إحياء الشعور القومى الألمانى وأنه يريد توجيه هذا الشعور لتأييده ضد البابوية، وكذلك فإنه اعتمد فى نجاح دعوته على الحكومات الألمانية القائمة أى على السلطات الزمنية. فكان من نتيجة ذلك ان اصبحت دعوة لوثر إلى الطاعة التامة لهذه السلطات القائمة من أركان عقيدته السياسية هذا بالإضافة إلى أنه ابتعد كل البعد عن وسائل الشدةوالعنف فى نشر مذهبه وعقائده.

على أن حدوث الحركات الثورية المتقدمة دلت على أن دعوة لوثر كانت تلقى قسطا كبيرا من النجاح فى ألمانيا وهذا على الرغم من مقاومة

لوثر نفسه لهذه الحركات الثورية، وقد شعر الأمراء الكاثوليك بالخطر المنتشر من استفحال أمر اللوثرية، إذا تركوها وشأنها، عندما وجدوا لوثر بعد القضاء على ثورة الفلاحين يتفرغ لبناء صرح للكنيسة الجديدة، ويعلن إلغاء الديرية والرهبنة ويتزوج من الراهبة كاترين بورا Bora ويشرع فى وضع أساس العقيدة. وعندئذ طلب الأمراء الكاثوليك من الإمبراطور شارل الخامس أن يتدخل فى الأمر. وكان الإمبراطور يخشى من وقوع الانقسام السياسى فى ألمانيا نتيجة الانقسام الدينى، إلا أنه كان من سوء حظ الكنيسة الكاثوليكية بصفة عامة أن الإمبراطور كان مشغولاً بنضاله مع فرانسوا الأول ملك فرنسا، كذلك كان الإمبراطور مهددًا بالتدخل العثمانى فى أملاك الإمبراطورية فى النمسا والمجر. ولهذه الأسباب لم يتخذ الإمبراطور موقفًا حاسمًا ضد اللوثرية وهى لاتزال فى بدايتها أو نشأتها، الأمر الذى أعطاها الفرصة حتى تقوى وتنتشر والذى جعل متعذرا مكافحتها بعد ذلك والقضاء عليها.

ولم تلبث أن ظهرت آثار هذه العوامل عندما عقد شارل الخامس المجلس الإمبراطورى الأول فى سبير Spire فى بافاريا (يونيو ١٥٢٦) لبحث المسألة الدينية والنظر فى موضوع تنفيذ القرار الذى اتخذه المجلس الإمبراطورى الذى عقد فى ورمس Worms فى يناير عام ١٥٢١ بطرد مارتن لوثر الخارج على القانون وإهدار دمه. تحريم تداول مؤلفاته، ولم يحضر الإمبراطور جلسات الدايت لانشغاله بمواجهة الحشود العسكرية العثمانية، ولذلك أناب عنه فى حضور جلسات المجلس الإمبراطورى ورياستها أخاه فرديناند ملك النمسا، إلا أن المجلس أصدر قراراً فى صالح الحركة اللوثرية فحواه (إن لكل أمير الحق فى أن يعيش وأن يسلك فى موضوع قرار ورمس المسلك الذى سوف يسأل عنه أمام الله وأمام حضرة

صاحب الجلالة الإمبراطور) وقد أعطى هذا القرار لكل أمير الحق فى أن يختار المذهب الدينى الذى يريده فى إمارته، وعلى ذلك فقد أصبح لأنصار لوثر فى ألمانيا بفضل هذا القرار أيضا مركز معروف به.

ولكن لم يلبث أن تغير الموقف بعد أن نهبت جيوش الإمبراطور روما واضطر البابا مرغمًا إلى قبول الصلح، ورأى شارك الخامس أن يخطو خطوة أخرى لحل المشكلة الدينية التى باتت تهدد البلاد الألمانية بانقسام دينى مذهبى خطير، فوجه الدعوة لعقد المجلس الإمبراطورى مرة أخرى فى مدينة سبير فى مارس ١٥٢٩ وهو الذى يطلق عليه دايت سبير الثانى، وفى هذا المجلس تقرر أن تكون قرارات ورمس الصادرة فى ١٥٢١ نافذة المفعول، ثم ألغيت الحرية التى كانت قد أعطيت للأمراء فى مجلس سبير الأول لاختيار المذهب الذى يريدونه.

ولم يكن من المنتظر ان يرضى اللوثريون بهذا القرار الأخير، فمنذ أن صدر قرار مجلس سبير الأول فى عام ١٥٢٦ اعتبر الأمراء اللوثريون أن من حقهم الاستيلاء على أراضى الكنيسة فى إماراتهم ولذلك فإن صدور قرار مجلس سبير الثانى فى عام ١٥٢٩ معناه ضياع هذه الثروة من أيديهم، وقد شجع الأمراء على المضى فى معارضتهم أن العثمانيين كانوا يزحفون فى غضون ذلك الوقت على فيينا،فأعلن اللوثريون أنهم لايتقيدون بقرار مجلس سبير الثانى واحتجوا عليه، وكان بسبب احتجاجهم هذا أن صاروا يسمون بالمحتجين Protestants فتحدوا بعملهم هذا سلطة الامبراطور، وأنذرت هذه الخطوة بانتقال النزاع من المناقشات السلبية إلى الحرب الأهلية، وفى هذه الظروف حاول الإمبراطور توحيد كلمة المسيحيين أمام العثمانيين – الذين لم يرفعوا الحصار عن فيينا إلا بعد جهود عظيمة فى

أكتوبر عام ١٥٢٩ – فدعا الأمراء البروتستنت للاجتماع مع منافسيهم الكاثوليك فى مجلس انعقد فى أوجزبرج Augsburg فى يونيو ١٥٣٠ للوصول إلى حسم الخلافات الدينية – ورأس الإمبراطور جلسات هذا المجلس، وضم معظم زعماء البروتستنت والكاثوليك على أمل أن يستطيع الفريقان الوصول إلى اتفاق مبدئى يلتقيان عنده. ولم يستطع مارتن لوثر حضور اجتماعات المجلس لأنه كان مهددا بالقبض عليه وإعدامه تنفيذًا لقرار ورمس وكان من أبرز أعضاء البروتستنت فيليب ملانكتون الفيلسوف البروتستانتى والذراع الأيمن للوثر. وقد وضع فيليب ما يعرف باسم اعتراف أوجزبرج وهو يتضمن ثمانية وعشرين مادة حدد فيها المبادئ الأساسية للعقيدة اللوثرية تحديدا واضحًا دقيقًا. وقد اتسمت بطابع الاعتدال وروح المواءمة والمصالحة ووقع عليها تسعة من زعماء البروتستنت وأطلق عليها فى ذلك الوقت اسم الاعتراف العظيم ولكن الإمبراطور الذى كان متأثرا بآراء من حوله من رجال الدين الكاثوليك فى المجلس انحاز إلى هؤلاء فرفض المجلس اعتراف أوجزبرج، وصدرت تعليمات الإمبراطور بتنفيذ قرارات مجلس ورمس الأول (١٥٢١) والقضاء على البروتستنتية، وفى أواخر عام ١٥٣٠ انفض مجلس أوجزبرج بعد أن أعطى الإمبراطور البروتستنت مهلة قصيرة حتى يتخلوا عن آرائهم حقنا للدماء، وعندئذ أجاب الأمراء البروتستنت على هذا الإنذار بأن الفوا فيما بينهم اتحادًا للدفاع عن مصالحهم ولرد القوة بمثلها، عرف باسم شمالكالديك Shemalkadic League عام ١٥٣١، واتخذ الموقف طابعًا خطيرًا عندما كون الأمراء الكاثوليك حلفًا ضد حلف الأمراء البروتستنت عرف باسم حلف نورمبرج Noremberg League فى عام ١٥٣٩، فعقد الإمبراطور مجلسا فى راتزبون Ratisbon فى عام ١٥٤١

لإنهاء الخلاف سلميا، ولكن دون جدوى، وكانت آخر محاولة سلمية قام بها الإمبراطور قبل أن يلجأ لاتخاذ القوة وهو ما حدث فى مارس عام ١٥٥١ عندما دعا البابا بول الثالث مجلسًا دينيا فى ترنت Trent ليبحث الاختلافات الدينية القائمة ولكن البروتستنت رفضوا قبول الدعوة لأن الكاثوليك كانوا مسيطرين على هذا المجلس، وعندئذ قرر الإمبراطور نهائيًا أن يستخدم القوة للقضاء على الانقسام الدينى الذى هدد ممتلكاته فأخذ يحشد جيوشه، وفى هذه الظروف العصيبة مات مارتن لوثر فى ١٨ فبراير عام ١٥٤٦.

أما النزاع البروتستنتى الكاثوليكى فقد استمر قائماً حتى أمكن التوصل إلى تسوية فى صلح أو جزبرج فى فبراير ١٥٥٥، وكانت أهم شروط هذا الصلح هى:

أولا: إقرار المبدأ الذى ظهر فى مجلس سبير الأول (١٥٢٦) وهو القائل بأن لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الذى يريد سريانه فى إمارته، واشترط الصلح على الأفراد الذين لا يريدون اتباع المذهب الذى لا يريده الأمير أن يغادروا الإمارة، وترك للأساقفة الحق فى اختيار المذهب الذى يريدونه ولكن على شرط أن يترك كل أسقف يعتنق العقيدة الجديدة أسقفيته وأن يفقد وظائفه الدينية وتجدر الإشارة إلى أن المذهب الذى سمح باختياره إلى جانب الكاثوليكية كان المذهب اللوثرى فقط.

ثانيا: فصل صلح أوجزبرج فى مسألة أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى فقدتها منذ قيام الحركة اللوثرية، فنص هذا الصلح على أن أملاك الكنيسة التى انتزعت منها قبل عام ١٥٥٢ تبقى فى حوزة الذين استولوا عليها سواء كانوا من رجال الدين أو من العلمانيين. أما أملاك الكنيسة التى

أخذت منها بعد عام ١٥٥٣ فهذه يجب إعادتها إلى الكنيسة.

وكانت هذه التسوية موضع نقد كبير لعدة أسباب أهمها.

أولا: أن قواعد التسوية كانت من صنع الأمراء وحدهم، فلم تكفل رعاية مصلحة بقية أفراد الشعب، فقد تم تدعيم استقلال الأمراء عن الإمبراطور عمليا وصار للأمراء حرية التصرف فى أخطر المسائل شأنا فى ذلك الوقت. وهى المسألة الدينية، فى حين أن هذا الصلح أهمل احترام الشعائر وعقائد الأفراد واقتصر مبدأ التسامح الدينى على الأمراء وحدهم ووجب على الفرد أن يتبع فى المذهب والعقيدة مايقرره الأمير وحده. إذا شاء أن يبقى فى الأرض التى نشأ عليها

ثانيا: ماجاء فى الصلح خاصًا برجال الدين الذين يفقدون وظائفهم ومواردهم بمجرد اعتناقهم لمذهب لوثر، فقد رفض البروتستنت دائما الاعتراف بهذا المبدأ لأن الأخذ به من شأنه أن يفقدهم الأراضى التى استحوذوا عليها.

ثالثا: أن هذا الصلح كان مقصورا على اللوثريين وحدهم فأغفل أمر عقيدة أخرى لاتقل خطرا على اللوثرية وهى الكلفنية، فأغفل الصلح الاعتراف رسميا بهذه العقيدة.

ولكن تجدر الإشارة إلى أن صلح أوجزبرج - بالرغم من كل هذا النقد - ظل أساسًا صالحا للحياة السياسية والدينية فى ألمانيا مدة تزيد على خمسين عامًا، فلم تظهر عيوب هذا الصلح بشكل واضح حتى قامت حروب الثلاثين عاما عند بداية القرن التالى.

انتشار الإصلاح الدينى فى أوربا:

شقت الحركة اللوثرية طريقها وسط المصاعب والأخطار والدسائس

ووسط المنافسات السياسية بين حكام المقاطعات الألمانية وكوارث الحروب الدينية حتى انتهى بها الأمر إلى الاستقرار فى شمالى ألمانيا بوجه عام، كما انتشرت العقيدة الجديدة فى إنجلترا حيث توطدت دعائم الاصلاح الدينى على أسس لوثرية فى جوهرها.

وفى الشمال انتشرت اللوثرية فى الممالك الإسكندنافية (الدنمرك والسويد) لأن هذه البلاد لم تخرج مفكرًا أو مصلحًا دينيًا كما حدث فى ألمانيا وسويسرا، هذا بالاضافة إلى أنه كان يجمع السويد والدنمرك والنرويج منذ ١٥١٧ عهد كولمار Colmar ثم استقلت السويد نهائيا فى عام ١٥٢٤ بزعامة جوستاف فازا Vaza الذى اعتنق المذهب اللوثرى حتى يستولى على أملاك وأموال الكنيسة الكاثوليكية لحاجة الدول الجديدة التى أنشأها للمال، كما شجع فردريك الأول ملك الدنمرك والنرويج (١٥٣٤-١٥٤٤) الإصلاح الدينى لأسباب لاتختلف فى جوهرها عن أسباب تشجيع الإصلاح الدينى فى السويد.

ومع ذلك فلم تنتشر اللوثرية انتشارا كاملًا فى أوربا كلها لعدة أسباب منها:

أولًا: صعوبة فهم العقيدة اللوثرية التى عجز كثيرون عن تفسيرها خصوصا مسألة التبرير بالايمان.

ثانيًا: اعتماد لوثر على تعضيد الأمراء فقط، مما جعل السواد الأعظم من الجماهير ينفضون من حوله.

ثالثًا: عدم محاولة لوثر نشر هذه العقيدة خارج المانيا، وقد أدى ذلك إلى وقوع الخلاف فى صفوف اللوثريين أنفسهم بعد وفاة لوثر من جهة ثم إلى صعوبة التغلب على الكاثوليكية المنظمة، وبخاصة عندما امتنع لوثر

عن الالتجاء إلى القوة والعنف فى نشر مذهبه، وقد ظهرت هذه النتيجة واضحة عندما أخذت الكنيسة الكاثوليكية تنظم شئونها وتصلح من مساوئها وتستعد للنضال من أجل الإبقاء على مذهبها بكل وسيلة.

على أن النجاح الذى لقيه الإصلاح الذى نادى به مارتن لوثر بالطرق السلمية لم يلبث أن شجع على ذيوع وانتشار دعوات أخرى للاصلاح فى أنحاء أوربا على أيدى مصلحين يفضلون نشر مذاهبهم بالطرق السلمية أيضا، وكان فى مقدمة هؤلاء زونجلى وكالفن.

الفصل الثانى

ألمانيا وحرب الثلاثين عاما ١٦١٨ - ١٦٤٨

لقد نشبت حرب الثلاثين عامًا بسبب الفتنة الدينية فى بوهيميا، وقد كان من الممكن تحديد ميدانها،ولكن أتيح لها أن تنتشر، مما أدى إلى أن تدخل معظم الدول الأوربية الصراع بدرجات متفاوتة، وعلى الرغم من أن الدنمرك والسويد وفرنسا وانجلترا وسافوى والأراضى المخفضة قد لعبت دورا فى هذه الحرب، فقد كانت ألمانيا بصفة خاصة هى المسرح الأصيل لهذه المأساة. كما أن أهل بوهيميا كانوا أوفر هذه الشعوب حظا من الخسائر.

وإذا أردنا أن نتصور الظروف التى اندلعت فيها هذه الحرب. أو بمعنى آخر أن نتقصى أسباب هذه الحرب.. نجد أن صلح أوجزبرج كان قد أنهى الحرب الدينية فى ألمانيا فى عام ١٥٥٥، وقد حاول هذا الصلح التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستنت على السواء، ولكن هذه المحاولة أخفقت.

وكان من أهم أسباب هذا الفشل ماجاء فى صلح أوجزبرج بشأن

المحافظة على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا وذلك أن هذه الممتلكات سرعان ماصارت -بعد هذا الصلح- موضع أطماع البروتستنت المنتصرين.

كما أن أوجزبرج لم يعترف بالعقيدة الكلفنية أو بمبدأ التسامح الدينى بصفة عامة، وظلت الكلفنية فى ألمانيا لا تجد أى أساس قانونى يمكنها الارتكاز عليه ومع ذلك فقد ساد السلام مدة طويلة فى ألمانيا بالرغم من هذا القصور الواضح فى صلح أوجزبرج ولعل السبب فى ذلك هو وجود نوع من التوازن فى القوى بين تلك الجماعات أو القوى الثلاثة: الكاثوليك، وأتباع لوثر، وأتباع كلفن، مما أدى إلى ذلك الهدوء العجيب بينهم، لأن الصدام المسلح قد يؤدى إلى أوخم العواقب، الأمر الذى منع هذه الجماعات من التطرف فى تعصبها.

ومن ناحية أخرى فقد بدا أن هذه الهدنة الطويلة بعد هذا الصلح كانت بصفة عامة فى صالح البروتستنت فقد استطاع اللوثريون والكلفنيون العمل على نشر مذهبهم دون أن يلقوا معارضة عنيفة، حتى أصبحت ألمانيا الشمالية بروتستنتية، كما تسرب هذا المذهب الجديد إلى الجنوب، أى فى النمسا وبافاريا.

أما الكاثوليك، فلم يكن من المتوقع أن يظلوا صامتين إزاء هذا الانتشار البروتستنتى فى معاقلهم السابقة، وخاصة بعد أن استمدوا قوة كبيرة من حركة الإصلاح الكاثوليكى مما بيناه آنفا وكان الفضل الأكبر لهذه المواجهة الكاثوليكية. للانتشار البروتستنتى راجعًا إلى مجهودات الجزويت اليسوعيين، ففى عهد الإمبراطور رودلف الثانى (١٥٧٦-١٦١٢) استطاع الجزويت أن ينفذوا إلى كثير من مظاهر

النشاط فى حذر ودون ضجة، فخدموا فى الإمارات المختلفة كآباء يقومون بسماع الاعتراف أو كوزراء للأمراء وفى هذه الحالة كانوا هم الذين يوجهون سياسة هؤلاء الحكام، وأسس الجزويت المدارس، وبعثوا بالمنصرين إلى أماكن مختلفة ونشطوا فى تدعيم الكاثوليكية.

وفى بداية القرن السابع عشر، كان نجاح الجزويت كبيرا لدرجة أن البروتستنت اضطروا لى التآلف فيما بينهم لمواجهة ذلك الخطر، فألفوا فيما بينهم الاتحاد البروتستنتى Protestant Union فلم يلبث الكاثوليك أن واجهوا هذا الاتحاد البروتستنتى بتأسيس الحلف المقدس The Holy League فى عام ١٦٠٩. ومنذ ذلك التاريخ انقسمت ألمانيا الى معسكرين كبيرين. وكان الكاثوليك أقوى تنظيما برئاسة مكسيليان دوق بافاريا بينما ظل البرتستنت مترددين - بسبب انقساماتهم القديمة بين لوثريين وكلفنيين - فلم يعضدوا تعضيدًا كاملًا رئيس الاتحاد البروتستنتى، وهو فردريك الخامس ناخب البلاتين Platine وكان من أتباع كلفن.

وكان المحرك الأول للحرب يسوعيا من الجزويت تقلد تاجا وهو فرديناند صاحب أستيريا، والذى أصبح فيما بعد الإمبراطورفرديناند الثانى وكان فرديناند أول طالب يتلقى علومه فى كلية يسوعية يصل إلى العرش الإمبراطورى وكانت تعاليم الجزويت قد أفعمته بالتعصب، حتى سيطرت عليه عاطفة دينية متأججة قوامها المقت الشديد للبروتستنت والتصميم على اجتثاث جذورهم من ممتلكاته فأنزل بهم سلسلة من الاضطهادات فى أستيريا عام ١٦١٨، وواصلها فى بوهيميا ثم تابعها فى سائر أنحاء أملاكه النمسوية، ونجح فى تحقيق هدفه وهو تصفية «المارقين» ووضع الحياة الدينية والفكرية فى بلاده تحت حكم جماعة الجزويت الشديد

الوطأة، إلا أن الثمن كان باهظًا وهو التدمير الشديد الذى أصاب بناء المجتمع البوهيمى كله، ثم ما أعقب ذلك - بطريقة غير مباشرة - من اندلاع حرب الثلاثين عامًا.

وقد مرت هذه الحرب الطويلة فى عدة أدوار: وأول هذه الأدوار كان الدور البوهيمى البلاتينى (١٦١٨-١٦٢٣) ففى هذا الدور طلب الإمبراطور فرديناند مؤازرة الحلف الكاثوليكى المقدس فأجابه إلى رغبته مكسيلبان دوق بافاريا رئيس هذا الحلف - كما ذكرنا - هذا بالإضافة إلى أن البروتستنت فى بوهيميا لم يلبثوا أن اعلنوا انتخاب رئيس الاتحاد البروتستنتى فردريك الخامس ناخب بلاتينه - الراين - ملكا عليهم فى عام ١٦١٩، فأراد مكسيليان أن يخلع غريمه فردريك عن هذا العرش.

وهكذا اندلعت نيران هذه الحرب ولكن سرعان ما انهزم ملك بوهيميا فى واقعة التل الأبيض White Hill خارج براغ فى نوفمبر ١٦٢٠ أمام قوات الحلف الكاثوليكى وقوات الإمبراطور فرديناند الثانى، وهكذا استولى الإمبراطور على بوهيميا، وأخذ يعمل لعودة الكاثوليكية واستقرارها بها.

وكادت تنتهى الحرب. إلا أن الامبراطور لم يكتف بذلك، فأنه لم يلبث أن أعلن خلع فردريك ثم جرده من أملاكه ومنحها لمكسيليان دوق بافاريا وأعطاه الحق فى الاستيلاء على هذه الممتلكات، إلا أن هذه الممتلكات كانت موزعة ومتناثرة فى جنوب ألمانيا.. من حدود الراين إلى بوهيميا، وتعرف باسم البلاتينات، فصار من واجب مكسيليان الاشتباك فى عدة معارك قبل أن ينجح فى الاستحواذ على هذه الممتلكات تنفيذًا لقرار الامبراطور.

ثم إنه سرعان ما استجد عامل آخر، وأخرج النضال من هذا النطاق المحلى إلى مجال أوسع، ذلك أن البروتستنت فى أوربا أفزعهم الانهزام الذى أصاب البروتستنتية فى ألمانيا، كما أن تجريد فردريك الخامس من أملاكه، جذب إليه عطف البروتستنت فى أوربا. وكان فى مقدمة العاطفين عليه جيمس الأول ملك إنجلترا، وهو الذى كان زوج ابنته اليزابيث، ولكن جيمس الأول لم يرد التدخل فى هذه الحرب خوفا من إغضاب أسبانيا الكاثوليكية، وكان جيمس الأول يبنى سياسته الخارجية على أساس وجود تفاهم بين إنجلترا أكبر دولة بروتستنتية - وأسبانيا - أكبر دولة كاثوليكية - من أجل تحقيق السلام فى أوربا وعلى ذلك آثر جيمس المفاوضة، والوصول إلى حل للمسألة بالطرق السلمية، إلا أن آماله فى التدخل الأسبانى لفض المنازعات فى ألمانيا لم تتحقق.

كما أن شارل عمانويل Charles Emannel صاحب سافوى كان من الذين عطفوا على البروتستنت فى ألمانيا، وقد قدم لهم الأموال التى استخدمت فى تجنيد جيش من المرتزقة لمعاونة الاتحاد البروتستنتى. وفى عام١٦٢٥ استجاب الملك كرستيان الرابع Christian IV ملك الدنمرك لنداء البروتستنت فى ألمانيا.. وعندئذ بدأ الدور الثانى (الدنمركى) فى حروب الثلاثين سنة.

ولم يستجب ذلك الملك اللوثرى لنداء البروتستنت فى ألمانيا فقط لاهتمامه البالغ بالعقيدة البروتستنتية، فقد كان يحدوه إلى ذلك - بدرجة أعلى - شهوة جارفة للحصول على مغانم الكنيسة الكاثوليكية وكان من بين أهدافه الحصول لأبنائه على حصة محترمة من إيرادات بعض الأسقفيات فى شمال ألمانيا. ولم تكن الرغبة فى أملاك الكنيسة أمرًا

مقصورًا على الدنمرك وإنما شارك فيها على نطاق واسع الأمراء البروتستنت فى سكسونيا وهكذا ومع بعض التشجيع من الملكية الانجليزية- قام نوع من التحالف بين الطامعين، كما تم حشد جيش ووضعت خطة للمعركة.

وبينما كان يدبر كل هذا فى الشمال، طرأ تغيير عام على التوجيه الحربى للقوات الكاثوليكية، فإن الانتصارات المبكرة لحركة الإصلاح الكاثوليكى فى بوهيميا والبلاتين لم تحرزها القوات الإمبراطورية تحت قيادة فرديناند، وإنما أحرزتها الفرق الألمانية تحت قادة مكسيليان صاحب بافاريا، على أن اعتماد الإمبراطور بهذه الصورة على جار يحميه، وقد يصبح منافسا له، كان أمرًا لا يطيقه الإمبراطور، وهكذا تطلعت سياسته إلى جيش إمبراطورى يخضع لقيادة الإمبراطورية، ونبعت من هذه السياسة شخصية غامضة وقوية هى شخصية البرت وينلاس فون ولنشتين Albert Wanelas Van Wallenafien أمير فربدلاند Friebland الذى عرف غالبًا باسم ولنشتين Wallenafien وقد تقدم هذا الرجل إلى الإمبراطور وعرض عليه أن يقدم له جيشا على نفقته الخاصة غير مشترط شيئًا سوى أن يحتفظ جيشه بالغنائم، بينما يكون نصيب الإمبراطور ما يغنم من المدفعية والذخائر.

ونجح ولنشتين فى جمع جيش كبير نتيجة الوعود التى أخذ يبذلها بشأن إعطاء الجنود المرتبات الكبيرة عدا الاسلاب والغنائم فالتف حوله عدد كبير من الجنود المرتزقة والمغامرين، الذين ضموا بينهم كذلك عددًا من البروتستنت، وهؤلاء جميعا لم يكن يعنيهم انتصار الكاثوليكية أو انهزامها، حيث لم تكن تربطهم غير الرغبة فقط فى الحصول على المغانم من هذه الحرب.

أما ولنشتين نفسه، فمن المعروف أنه لم يكن يبغى مجرد خدمة الإمبراطور فحسب، بل إنه كان هو الآخر لديه مشروعات القضاء على حكم الأمراء المحليين فى ألمانيا،ثم إنشاء دولة المانيا قوية على أنقاض هذه الإمارات على أن تكون هذه الدولة،خاضعة للإمبراطور، وبطبيعة الحال يستحوذ ولنشتين على النفوذ الداخلى فى الدولة الجديدة.

وقد بدأت الحرب فى هذا الدور بأن انتصر تيلى Tilly على جيش الملك كريستيان الرابع فى موقعة لوتر Lutter فى أغسطس ١٦٢٦. إلا أن انتصار والنشتين فى واقعة كوزل Cozel كان له نتائجه الخطيرة فقد اندفع والنشتين بعد هذا النصر الكبير إلى داخل الأراضى الدنمراكية ولم يمنعه من فتح الدنمرك ذاتها سوى عدم توفر أسطول لديه.

ولم تكن أغراض والنشتين فى هذا النضال دينية بقدر ماكانت سياسية فقد بذل والنشتين جهده من أجل إحياء سلطة الإمبراطورية وتدعيم سيطرتها، على أنقاض السلطات المحلية فى الإمارات.. الأمر الذى أثار كراهية النبلاء الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتسبب فى عدائهم لولنشتين، على أن والنشتين لم يلبث أن تزايدت مطامعه،فأسس لنفسه إمارة فى ساجان Sagan ثم حصل من الإمبراطور فرديناند الثانى على دوقية مكلبزج وقد نقم الأمراء على والنشتين لذلك، لأنهم جدوا أن هذا المغامر قد وصل إلى مرتبة مساوية لمرتبتهم، هذا بالإضافة إلى أنهم وجدوه وقد أصبح صاحب الأمر والنهى ويتصرف كما يشاء فى الأراضى الألمانية.

ولقد كان من أهداف والنشتين كذلك وضع قوة بحرية ألمانية فى البحار الشمالية، كى يتمكن من إخضاع الممالك الاسكندنافية ولذلك فقد أخذ يعمل لفرض سيطرته على ساحل البلطيق الجنوبى، فاحتل ويسمار

Wismar ثم قام بمحاصرة سترالسند Straslund إلا أن أهلها دافعوا عنها دفاعًا بطوليًا، ثم تقدم لمساعدتهم ملك السويد جوستاف أدولف Gostavus Odulphus وكان هذا الملك يخشى من انتصارات والنشتين، ومن أن يتوطد سلطان الامبراطورية فى بحر البلطيق، فأرسل أسطولا صغيرا لمساعدة سترالسند من ناحية أخرى، لم يشأ الحلف الكاثوليكى أن يبعث بقائد جيوشه تلى Tilly لمساعدة والنشتين خوفا من سطوة هذا الأخير، فكأن أعضاء الحلف الكاثوليكى بموقفهم هذا قد آثروا أن تتعرض الكاثوليكية ذاتها للخطر، على أن تتعرض سلطتهم وإماراتهم للضياع.

ولم تلبث أن تزايدت صعوبات والنشتين عندما وجد أن السويد والدنمرك قد نبذتا الخلاف القائم بينهما واتفقتا على مواجهة والنشتين، وبدا أن هناك إجماعا من إنجلترا وفرنسا وهولندا على معاونة الدنمرك، وعلى هذا طالب والنشتين بالصلح مع الدنمرك وتم عقد الصلح بالفعل بين الطرفين فى لوبك Lubeck فى عام ١٦٢٩، على أساس أن تسترد الدنمرك الأراضى التى أخذت منها فى نظير أن تتعهد بعدم التدخل مرة أخرى فى شئون ألمانيا.

على أنه فى غضون ذلك الوقت، كانت الانتصارات الكاثوليكية قد بلغت ذروتها فى ألمانيا، فقد أخرج صلح لوبك الدنمرك من النضال، ولم يبق فى ألمانيا جيش قادر على مقاومة الإمبراطور، وعلى ذلك بات متوقعا أن يستغل الإمبراطور هذا النجاح لقمع البروتستنتية فى ألمانيا، وبالفعل صدر مرسوم فى مارس ١٦٢٩ لاسترجاع أملاك الكنيسة، وبمقتضى هذا المرسوم، كان على البروتستنت أن يعيدوا للكنيسة الكاثوليكية الأراضى

التى كانوا قد استولوا عليها من معاهدة بساو Pasau فى عام ١٥٥٢ وصلح أجزبرج فى عام ١٥٥٥. وعلى هذا تجمعت قوى البروتستنت لمواجهة تلك الاخطار المحدقة بها.

وكان مما بعث الأمل فى إحياء قوة البروتستنت فى هذه الظروف التى ظهر فيها كأنما قد تم القضاء تماما على البروتستنتية فى ألمانيا، أن الإمبراطور اتخذ قرارا بالاستغناء عن والنشتين وطرده من خدمته، وقد اضطر الإمبراطور إلى إصدار هذا القرار لأن جيش والنشتين أخذ يعيث فى البلاد فسادًا شديدًا، ثم أن والنشتين كان قد أثار عداء النبلاء الكاثوليك بسبب مشروعاته فى إعادة السيطرة الإمبراطورية وفى هذا ما فيه من انتقاص لسلطاتهم ومكانتهم.. وهكذا طلب الحلف الكاثوليكى برئاسة مكسيليان دوق بافاريا فى يوليو ١٦٣٠ عزل والنشتين من قيادة الجيش، ولقد اضطر فى آخر الأمر إلى إجابة الحلف إلى طلبه خوفا من خروج هذا الحلف عليه، وهكذا تخلى والنشتين عن قيادة الجيش وحل محله تلى Tilly وهكذا نجد أنه فى الوقت الذى ظهر فيه كان الإمبراطور قد تحرر نهائيًا من سلطان الحلف الكاثوليكى، وقطع شوطًا كبيرًا فى سبيل توحيد سيطرته وتركيزها فى ألمانيا، استعاد الحلف الكاثوليكى مكانته السابقة، وفقد الإمبراطور الأداة التى تجعل سيطرته ممكنة.

وفى غضون ذلك الوقت حدث تغيير آخر فى قصة هذه المأساة أو تلك الحرب الطويلة، إذ تدخل ملك السويد تدخلاً فعليًا فى هذه الأحداث، وبذلك بدأ الدور الثالث من هذه الحرب أو مايعرف بالدور السويدى (١٦٣٠ - ١٦٣٥).

ففى الوقت الذى أرغم فيه والنشتين على التنحى عن القيادة نزل فى

ألمانيا جيش من السويد بقيادة جوستاف أدولف، وكان هدف ملك السويد الفعلى من هذه الحرب هو جعل بحر البلطيق بحيرة سويدية، وعلى ذلك فقد انزعج الملك السويدى من تدعيم نفوذ الإمبراطور فرديناند الثانى فى ألمانيا الشمالية، ورأى أنه من الضرورى القضاء على بيت الهابسبورج فى ألمانيا من أجل المحافظة على كيان وصيانة مصالحها الحيوية من تجارية وسياسية فى بحر البلطيق والأرض الشمالية الألمانية، ويجب أن لا ننسى فى هذا المضمار أن ملك السويد كان بروتستنتيا صميما، ويؤلمه أن يرى تلك السيطرة الكاثوليكية على ألمانيا كلها بفعل انتصارات القوات الكاثوليكية.

وهكذا نزل جوستاف بجيشه (حوالى ١٥٠٠٠ مقاتل) إلى الأراضى الألمانية وطلب من الأمراء البروتستنت الانضمام إليه فى مواجهته للكاثوليك، إلا أن هؤلاء الأمراء البروتستنت أظهروا عدم ارتياح لتسليم بلادهم إلى ملك أجنبى إلا أنه فى غضون ذلك الوقت لم يلبث أن وقعت بعض الأحداث التى جعلت الأمراء البروتستنت يغيرون من موقفهم، فقد حدث أن تحالفت فرنسا - عملاً برأى وزيرها ريشليو - مع جوستاف أدولف، وان كانت فرنسا لم تقدم لحليفها سوى الأموال التى تستعين بها السويد على مواصلة القتال ضد الإمبراطور.

كما أن جيش الحلف الكاثوليكى قام فى غضون هذه الفترة بمهاجمة مدينة مجدبرج Magdeburg فى عام ١٦٣١، وأوقع تلى Tilly وجنوده بأهلها مقتلة عظيمة، وكانت هذه الكارثة كافية لكى يبادر الأمراء البروتستنت بالانضمام إلى ملك السويد. وهكذا تقدم جوستاف أودلف فى سبتمبر ١٦٣١ لملاقاة قوات الحلف الكاثوليكى، وأمكن للملك السويدى

أن يوقع بتلى وجيشه هزيمة ماحقة فى براتينفلد Briantenfeld بالقرب من ليبزج، وقد ترتبت على ذلك نتائج هامة.. فقد نجحت البروتستنتية، كما صارت ألمانيا بأسرها وفى فترة قصيرة تحت رحمة ملك السويد، وهكذا بدأ الكاثوليك يشربون من نفس الكأس التى سبق أن أذاقوها للبروتستنت.

وقد غدا أسلوب جستاف فى الحرب نموذجًا يتدارسه طلاب المدارس العسكرية فى كل انحاء أوربا، فقد تقدمت القوات البروتستنتية نحو براج شرقًا ونحو ماينز Mainz وورمز Worms غربًا، ثم جاءت هزيمة تلى الأخيرة فى ليك فى بافاريا، وأصيب تلى نفسه بجراح قاتلة وتوج جوستاف هذه المجهودات بدخوله ميونيخ مقر الحلف الكاثوليكى وصارت فيينا ذاتها وهي مقر الإمبراطور مهددة وقد أصبحت كل هذه الانتصارات عملًا جليلًا يبهر الأبصار ولكن المظهر فى الانتصارات السويدية كان يفوق الجوهر، إذ لم يكن من المتوقع أن يرضى الألمان عن جيش أجنبى لا يتقاضى أجورا كافية، ولا يعيش إلا على خيرات البلاد، فتوانى بروتستنت ألمانيا فى مساعدة السويديين واتهموهم بحق بأن الحصول على أراض ألمانية كان أحد أغراضهم الرئيسية، وعلى الرغم من آمال ريشيليو، فإن الكاثوليك وقد أثارتهم عمليات السلب المنظم التى قام بها الجند السويديون لم يعتبروهم أصدقاء لهم وإنما اعتبروهم أعداء وعلى ذلك هاجمت كل من السويد وبافاريا الأخرى بدلا من الهجوم المشترك على قوات الإمبراطور. وقد خرج جستاف من هذا الصراع منتصرًا إلا أنه كان فى انتظاره جيش إمبراطورى أعاد تكوينه والنشتين وأصبح قائدا له، وكان فى انتظاره ليحاسبه حسابًا عسيرًا، وكان هذا الجيش من القوة – وخاصة بعد أن انضمت إليه قوات مكسيليان– بحيث استطاع أن يوقع أول هزيمة بجيوش جستاف فى نورمبرج Nuremberg إلا أن

جستاف لم تهن عزيمته، بل أوقع بولنشتين وجيشه هزيمة ساحقة فى لتزن Lutzen (١٦ نوفمبر ١٦٣٢) غير أن خسارة البروتستنت كانت فادحة لأن قائدهم جستاف لقى حتفه فى المعركة، وذكر أنه عندما سأله أحد رجال الدين عن اسمه عندما كان ملقى على الأرض مثخنا بجراحه القاتلة قال «أنا ملك السويد الذى يوقع على عقيدة الشعب الألمانى وحريته بدمه».

واستمرت الحرب، وقد فقدت بوفاة جستاف البقية الباقية من مثلها العليا البروتستنتية، ولم تكن السويد لتقبل الانسحاب من حرب أعطتها غنائم كثيرة فى المدن الألمانية الغنية ومنحتها صوتا مسموعا فى أوربا، وإذا كان جستاف قد اختفى من الميدان فقد كان هناك الوصى على العرش السويدى فى فترة قصور ابنة الملك الراحل الطفلة كرستينا Christina وكان هذا الوصى سياسيا حكيما شارك الملك جستاف فى مسئوليات الحكم، وحمل مدة طويلة أعباء الحكومة الداخلية. وقد صمم ذلك الوصى اكزنستيرنا Oxenstierna على أن يحتفظ للسويد بالزعامة على ألمانيا البروتستنتية، وفى عهده حاولت السويد الانتصار فى الحرب التى استمرت بعد وفاة جستاف معتمدة على ضباط جستاف وجيشه، إلا أن الإمبراطوريين استطاعوا هزيمة الجيش البروتستنتى فى نوردلنجن Nordlingen فى سبتمبر ١٦٣٤، وهكذا دارت الدائرة مرة أخرى على البروتستنت، وأمكن للكاثوليك أن يؤمنوا مواقعهم فى ألمانيا مرة أخرى، ولم يكن والنشتين هو قائد جيش الإمبراطور عند انتصار نوردلنجن، بل كان يقوده فردنند ابن الإمبراطور. ويبدو أن وفاة جستاف أدولف التى حرمت البروتستنت من قائدهم الممتاز، كانت قد أزالت الباعث على الاستنجاد أصلا بوالنشتين كذلك بدا أن والنشتين لديه مخططات واسعة

للاستيلاء على السلطة، وعلى أية حال فقد اتهمه الإمبراطور بالخيانة وتخلص منه بقتله فى ٢٥ فبراير ١٦٣٤ وقبل موقعة نوردلنجن بستة أشهر.

على أن هزيمة نوردلنجن أوضحت أن السويد من غير قائدها العظيم لا تستطيع مواصلة النضال ضد الإمبراطورية، وتلك حقيقة أقنعت ريشيليو وزير فرنسا بأن التدخل الفعال قد صار ضروريا فى هذه الحرب الطويلة وهكذا بدأ الدور الرابع والأخير من أدوار حرب الثلاثين عامًا وهو (الدور السويدى الفرنسى١٦٣٥-١٦٤٨) والواقع أن هذا الدور من أدوار الحرب طور علمانى تماما فقد فقدت الحرب ذلك الطابع الدينى الذى تميزت به أصلاً واختفى فى غمرة النضال بين أسرتى البوربون والهابسبورج للسيطرة على أوربا، والواقع أن روح الحرب الدينية، كانت قد توارت تقريبا فى نضال اتحدت فيه فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستنتية مع جمهورية هولندا البورتستنتية- فى معاهدة كومبين Compiene فى ٢٨ أبريل ١٦٣٥- ضد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية وأسبانيا الكاثوليكية، وأخذت سافوى تبيع صداقتها تارة لهذه وتارة أخرى لتلك، وعندما اصبحت المسائل الخطيرة موضع النزاع لا تتعلق بالعقيدة أو الطقوس الدينية، وانما تتعلق بإمكان السماح للسويد بالاحتفاظ ببوميرانيا، ولفرنسا باستبقاء الألزاس، فقدت الحرب الجانب الأكبر من دوافعها الحماسية للعقيدة، ولكنها امتلأت بعمليات الزحف والتراجع والحصار والتسليم والحرق عمدا والقتل، وكل ألوان النكبات التى كان فى مقدور الفرق المرتزقة المتوحشة الجائعة أن تنزلها بشعب لا حول له ولا قوة.

وبدخول فرنسا فى هذه الحرب الطويلة، لم تصبح هذه الحرب حربا

المانية، أما تقرير فرنسا التدخل تدخلا مباشرا فكان مبعثه الرغبة فى خدمة مصالحها السياسية ذلك أن انهزام البروتستنت فى موقعة نوردلنجن جعل هؤلاء يرتمون فى أحضان فرنسا، وإذا كان ريشيليو قد امتنع فى الدور السابق عن التدخل المباشر فى الحرب، فالسبب فى ذلك أن النفوذ الأكبر كان حينئذ من نصيب السويد وملكها جستاف أدولف، أما الآن فقد نجم عن فشل السويد أن صار الطريق ممهدا لتغلب النفوذ الفرنسى إذا شاءت فرنسا الدخول فى الحرب، وكان واضحا أن فرنسا سوف تتمكن حينئذ من تحقيق مآربها السياسية بفضل هذا النفوذ المتفوق، وذلك ماكان يتوقعه ويريده وزيرها ريشيليو.

ثم من الأسباب التى حملت ريشيليو على التعجيل بالتدخل، أنه كان هناك أمل بعد هزيمة البروتستنت فى نورد لنجن أن تنتهى الحرب فى ألمانيا وانتهاء الحرب على هذه الصورة معناه ضياع الفرصة على فرنسا لخدمة مصالحها، والسماح بتقوية سلطان الهابسبورج فى ألمانيا وذلك ماكانت تخشاه وتأباه فرنسا.

أما كيف كان هناك أمل فى إمكان إنهاء الحرب بعد واقعة نوردلنجن فى سبتمبر ١٦٣٤، فتفسير ذلك أن بعض الأمراء من البروتستنت وفى مقدمتهم جون جورج ناخب سكسونيا، كانوا يخشون من تغلب نفوذ السويد ومن تغلب نفوذ فرنسا على السواء فى المانيا بسبب هذه الحرب التى كانت تتحول سريعا من حرب تهتم بمسألة المذهب والعقيدة إلى حرب أوربية تهتم بالمسائل والمصالح السياسية ولذلك فقد كان من نتائج هزيمة نورد لنجن أن بادر جون جورج ناخب سكسونيا إلى استئناف المفاوضات مع الإمبراطور فرديناند الثانى، وفى يونيو ١٦٣٥ توصل

الفريقان إلى عقد الصلح فى براج، وبمقتضى هذا الصلح، أعيد النظر فى مرسوم استرجاع أملاك الكنيسة الذى كان قد صدر فى عام ١٦٢٩، فتم الاتفاق فى صلح براج على تحديد عام ١٦٢٧ تاريخا لاسترجاع أملاك الكنيسة التى أخذت بعد هذا العام وذلك بدلا من سنة ١٥٥٢التى كانت قد تحددت تاريخا لذلك فى مرسوم الاسترجاع الذى صدر فى مارس ١٦٢٨، وبناء على ذلك فإن الأراضى والأملاك التى تكون فعلاً يوم ١٢ نوفمبر ١٦٢٧ فى حوزة أصحابها سواء كان هؤلاء قد استولوا عليها قبل صلح أوجزبرج فى ١٥٥٥ أم بعد هذا الصلح، تبقى فى حوزة أصحابها وتستمر فى حوزتهم لمدة خمسين عاما، أو أنها تعاد لأصحابها إذا كانت قد أخذت منهم تطبيقا للمرسوم السابق أى للمرسوم الذى صدر فى ٦ مارس ١٦٢٩، وعلى أن تبقى فى حوزتهم لنفس المدة المنصوص عليها، وفى بحر هذه المدة يجرى الاتفاق بشأن هذه الأراضى والأملاك بالطريق الودى.. ومعنى ذلك أن صلح براج جعل تنفيذ مرسوم مارس ١٦٢٩ يتأجل فعلاً خمسين سنة، وفى ذلك ترضية للبروتستنت.

وعلى أية حال فقد اعترف غالبية الأمراء بصلح براج لأنه كان فى الواقع تسوية طيبة وحكيمة بقدر ماسمحت به الظروف حينذاك، فقد حصل الموقعون البروتستنت على ضمان حريتهم الدينية وعلى استبقاء الأراضى والإيرادات التى كانوا قد أخذوها من الكنيسة الرومانية مدة خمسين عاما.

ومما يجب ملاحظته أن صلح براج لم يشمل الكلفنيين ومع ذلك فإن قبول أكثر الأمراء البروتستنت لهذا الصلح كان كافيا لأن يكفل عودة السلام إلى المانيا ١٦٣٠، لو أن المصالح الأجنبية لم تتدخل على يد فرنسا

لتحريك الحرب ثانية، ولذلك - وكما ذكرنا - فقد أصبحت حرب الثلاثين عاما فى هذا الدور الأخير حربا سياسية بحتة أساسها النضال بين أسرة الهابسبورج والبوربون للسيطرة على أوربا.

وكان هناك ميدانان للحرب، أحدهما تشغله الحرب من جانب فرنسا التى تقدمت بنشاط فى داخل ألمانيا، والآخر تشغله الحرب من جانب السويد التى تقدمت من ناحية البلطيق إلى قلب ألمانيا وبذل الامبراطور قصارى جهده لوقف هذا الزحف المزدوج، أما الشعب الألمانى نفسه فقد كان موقفه من هذا النضال موقف المتفرج لأنه كان قد انهكه التعب وصار لايرغب سوى نهاية هذه الحرب بأية صورة من الصور ولمصلحة أى من الطرفين المتنازعين.

وفى بداية الأمر انتصر الإمبراطوريون فى عام ١٦٣٦ وأجبروا السويديين على الانسحاب والارتداد إلى السويد، كما دفعوا الفرنسيين أمامهم حتى صاروا يهددون باريس ذاتها.

ولكن أمد هذه الانتصارات كان قصيرا. فلم يلبث أن تمكن الفرنسيون من إجلاء أعدائهم عن بلادهم، واستطاع السويديون بقيادة بانر Baner أن يحرزوا انتصارا حاسما فى واقعة ويتستوك Wittstock فى أكتوبر عام ١٦٣٦ ونتيجة لهذا الانتصار سقطت فى قبضة السويد كل من براندنبرج وبوميرانيا وسكسونيا وثورينجيا وجزء من فرنكونيا.

وكان لوفاة الإمبراطور فرديناند الثالث فى بداية عام ١٦٣٧ وتولى فريديناند الثالث - وكان أقل منه كفاءة - أثره فى إضعاف موقف الإمبراطوريين.

واستمرت الحرب فى صالح فرنسا والسويد فاستطاع الفرنسيون فى

الغرب الاستيلاء على الالزاس فى ١٦٣٩، وحاول البابا عدة مرات أن يعقد صلحا ينهى هذه الحرب دون جدوى، أما السويديون فقد تقدموا فى عام ١٦٤١ حتى باتوا يهددون فيينا ذاتها.

وفى عام ١٦٤٦ انضمت القوات الفرنسية الى القوات السويدية وفى معركة زوسمار شاوسن Zusmarshausen فى مايو ١٦٤٨ أوقع القائدان السويدى والفرنسى بخصمهما مكسميليان البافارى هزيمة ساحقة.

وبعد هذه الواقعة الأخيرة، اضطر الإمبراطور إلى قبول الصلح، بعد أن تبين عجزه التام عن متابعة الحرب منفردا، وقد تم التوقيع على الصلح فى مونستر فى وستفاليا فى ٢٤ أكتوبر عام ١٦٤٨، وبهذا الصلح انتهت حرب الثلاثين عاما.

ويعتبر صلح وستفاليا من التسويات الفائقة الأهمية فى تاريخ أوربا الحديث لأنه ظل الأساس الذى تستند عليه الدول الأوربية فى علاقاتها الرسمية منذ وقت إبرامه فى ١٦٤٨ إلى قيام الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩. كذلك تبدو أهمية هذه الوثيقة التاريخية الهامة - الصلح - لأنه تناول مسائل متنوعة سواء كانت داخلية خاصة بألمانيا أم دولية خاصة بالدول المعنية الأخرى.

كانت أهم الموضوعات التى تناولها هذا الصلح هى وضع قاعدة جديدة للسلام بين البروتستنت والكاثوليك، فقد اعتمد هذا الصلح المبادئ التى قررها صلح بساو فى عام ١٥٥٢ وصلح أوجزبرج فى ١٥٥٥، وفحواها أن لكل أمير الحق فى اختيار المذهب الذى يسرى فى إمارته ولكن مع فارق هام هو، أن صلح وستفاليا اعترف رسميا بمذهب كالفن، فشمل التسامح الدينى أتباع كالفن كما شمل أتباع لوثر من قبل والواقع أن هذا الصلح

لم يمنح التسامح للأفراد بل أبقاه كما كان العهد سابقا مقصورا على الأمراء

أما فيما يتعلق باسترجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية، فقد اعتبر عام ١٦٤٢ تاريخا يجرى على أساسه الفصل فى الأملاك التى تبقى فى حوزة كل من الكاثوليك والبروتستنت من أسقفيات وأراضى الكنيسة فيبقى كل فريق منهما محتفظا بما كان فى يده فى أول يناير عام ١٦٤٢ وذلك بدلا من عام ١٥٥٢ وهو التاريخ الذى تحدد فى مرسوم ١٦٢٩ وبدلا من عام ١٦٣٧ وهو التاريخ الذى جاء فى صلح براج فى مايو ١٦٣٥، وأهمية هذا القرار أنه أبقى فى يد الكاثوليك جميع الأسقفيات الكاثوليكية فى الجنوب، بينما أبقى فى أيدى البروتستنت جميع الاسقفيات والأراضى فى الجهات الشمالية.

أما الموضوع الهام الثانى الذى تناوله هذا الصلح فهو موضوع اقتسام الغنائم بين المنتصرين فقد حصلت السويد على عدة أسقفيات فى الشمال، ثم حصلت على الجزء الأكبر من بوميرانيا الغربية، وبفضل هذه الأملاك الجديدة صارت للسويد رقابة فعالة على مصبات الأنهار الألمانية وهى الأودر Oder وإلب Elbe ووزر Wesser وبذلك أحرزت السيطرة التى كان يريدها جوستاف أدولف على بحر البلطيق.

أما فرنسا فقد استولت على أراضى الألزاس النمسوية ومعها بريساك Breiasck ما عدا مدينة ستراسبورج الحرة وبعض المناطق الأخرى الأقل أهمية، والتى ظلت فى حوزة الأمراء الذين كانوا تابعين للإمبراطورية.

أما الموضوع الهام الثالث الذى حواه هذا الصلح الفريد فكان يمس :

الأوضاع فى ألمانيا ذاتها، فقد نال الأمراء الألمان فى هذا الصلح تأكيدات بحقوقهم فى السيادة فصار لهم الحق فى عقد المحالفات فيما بينهم أومع الدول الأجنبية. فأصبحت الإمارات من الناحية القانونية فى حكم المستقلة الأمر الذى ترتب عليه أن صار تفكك أوصال ألمانيا كاملاً.

وقد نال ناخب براندنبرج تعويضا عن بوميرانيا الغربية التى أخذتها السويد، فأعطى أسقفيات مجدبرج هالرشتاد Halherstad ومينون Minoen وكامين Camin ثم تدعمت حقوقه الوراثية على بوميرانيا الشرقية، وأعيدت له السيطرة على دوقيات كليف ورافنزبرج Ravenzberg وبذلك أصبح ناخب براندنبرج أعظم الأمراء الألمان قاطبة ويلى الإمبراطور فقط فى الأهمية، كما أن هذا التوسع الجديد أعطى براندنبرج الفرصة لكى تنمو باطراد حتى تصل إلى مرتبة المملكة (مملكة بروسيا) ثم تستطيع منافسة النمسا والتغلب عليها، ثم يمكنها فى النهاية إحياء ذلك الاتحاد الألمانى الذى عمل صلح وستفاليا للقضاء عليه وبعثه من جديد فى ألمانيا.

وقد احتفظ مكسميليان دوق بافاريا بأقاليم البلاتينات العليا وبلقب الناخب فى الإمبراطورية وأما البلاتينات السفلى فقد أعيدت إلى شارل لويس ابن فردريك الخامس وأعطى أيضا لقب ناخب فى الإمبراطورية.

والواقع أن المانيا خرجت من هذه الحروب مفككة الأوصال مضعضعة القوى، بل إن صلح وستفاليا أكد الكيان المستقل لثلثمائة وخمسين ولاية ألمانية لكل منها الحق فى انتهاج سياسة خارجية خاصة.

وعلاوة على ما سبق، فقد اعترف صلح وستفاليا بانفصال سويسرا عن الإمبراطورية كذلك انهى هذا الصلح رسميا الحروب الطويلة بين

أسبانيا والأراضى المنخفضة الهولندية واعترف باستقلال هولندا نهائيا.

وتبدو أهمية هذا الصلح من الناحية الدينية، لأنه يشكل بداية عهد جديد فى تاريخ الحضارة الأوربية. فقد أقر هذا الصلح بعد فترة الحرب الدينية الطويلة مبادئ من شأنها نجاة البروتستنتية نهائيًا من الأخطار التى أحاقت بها، ومع أن صلح وستفاليا لم يمنح التسامح الدينى للأفراد فقد اختفى الاضطهاد الدينى منذ هذا الحين وصار من الأمور الشاذة.

وفى المائة وخمسين سنة التالية تغلغل مبدأ التسامح الدينى فى المجتمعات الأوربية لدرجة المبادئ التى اعترفت بها الإنسانية قاطبة.

والواقع أنه فى النصف الثانى من القرن السابع عشر عاد التوازن بين الأسعار والأجور، واختفت أكبر عوامل الاضطراب الاقتصادى والاجتماعى والدينى، وخرجت الحكومات من هذه الاضطرابات وهى أقوى مما كانت عليه بفضل زيادة مواردها ثم زوال الانقسامات الداخلية وهكذا كان فى إمكان الدولة الاعتماد على نفسها دون مساعدة الكنيسة بل وكان فى إمكانها أن تبذل جهودها للحد من سيطرة الكنيسة فى داخل حدودها، حقيقة بقى احترام العقيدة ذاتها لدرجة أن لويس الرابع عشر مثلا استطاع أن يتذرع بولائه واحترامه للعقيدة فيضطهد الهوجونوت فى فرنسا. ولكن الدولة فى هذا القرن كان فى مقدورها انتهاج السياسة التى تريد السير عليها فى علاقاتها مع الدول الأخرى مسترشدة فى ذلك بمصالحها التجارية والسياسية الخالصة.

الفصل الثالث

الاتحاد الألمانى

لم يحاول مؤتمر فيينا أن يعيد الامبراطورية الرومانية المقدسة إلى الحياد وذلك لأن مترنخ كان يرغب فى الاحتفاظ بألمانيا مقسمة ضعيفة وبذلك تصبح سيطرة النمسا كاملة على ألمانيا، ولما كانت ولايات ألمانيا تخشى مطامع بروسيا فقد اتجهت إلى النمسا، كذلك قرر مؤتمر فيينا تكوين الاتحاد الألمانى وكان اتحادًا مفككًا أضعفه اشتراك دول أجنبية مثل الدنمارك وهولندا، وإنجلترا، فى الدايت بحكم إدارتها لولايات ألمانية، وكانت سياسة النمسا فى المانيا تسير وفق مصالحها فقط واستطاع مترنخ أن يطبق نظامه على كل ألمانيا.

وبعد ثورات سنة ١٨٤٨ التى قامت ضد الإمبراطورية النمساوية فقدت النمسا الكثير من نفوذها القديم، وسارت بروسيا إلى زعامة ولايات ألمانيا، وطالب الشعب فى كل مكان فى ألمانيا ببرلمان ألمانى قومى ينتخبه الشعب كى يضع دستورًا ونظامًا لألمانيا الموحدة، وفعلًا اجتمع أول برلمان قومى فى مدينة فرانكفورت سنة ١٨٤٩ وكان غرضه توحيد ألمانيا

كلها تحت حكومة واحدة يرأسها الملك البروسى كإمبراطور وراثى وتقدم البرلمان بالتاج إلى فردريك وليم الرابع ملك بروسيا ولكنه رفض هذا التاج وهكذا فشلت أول حركة شعبية لتوحيد ألمانيا.

زعامة بروسيا التجارية:

كانت بروسيا تسير نحو زعامة ألمانيا التجارية وذلك بسبب سيطرتها على الأنهار الرئيسية إلى جانب امتلاكها للأقاليم الصناعية الهامة، وقد رأى البروسيون أن الاتحاد الألمانى يضم ولايات عديدة لكل منها مكوس خاصة، مما شكل عقبة فى سبيل الازدهار والرخاء وقد أدت النتيجة السيئة للحواجز الجمركية على التجارة وكذلك الاختلافات الاقتصادية بين أجزاء بروسيا إلى تكوين اتحاد جمركى يطلق عليه الزلفرين وقد نظمته بروسيا وألغت الحواجز الجمركية للولايات التى انضمت إليه، وقد أنشئ هذا الاتحاد سنة ١٨١٩، وفى عام ١٨٥٢ كان الاتحاد شاملا لجميع الولايات الألمانية عدا النمسا التى رفض طلبها فى الانضمام إليه، وأهمية هذا الاتحاد الجمركى هو رفع المكوس الداخلية بين الولايات وبذلك سهل توسع ألمانيا الصناعى، إلى جانب أن ألمانيا استعادت وحدة اقتصادية كانت تفتقر إليها وسوف تؤدى سيطرة بروسيا فى هذه الوحدة الاقتصادية إلى سيطرة فى الاتحاد السياسى على يد بسمارك الذى عرف بين عظماء السياسيين برجل «الدم والحديد»

بسمارك:

ينتمى بسمارك إلى طبقة اليونكرز وهى طبقة من صغار النبلاء تميزوا بامتلاكهم الضياع الواسعة وهذه الطبقة تعتنق مبدأ المحافظين والتشبث

بامتيازاتها الاجتماعية والقانونية والمادية، وكانوا من أنصار الحكم الملكى يؤيدونه مادام لاينقص من حقوقهم.

درس بسمارك القانون خارج بروسيا وذلك فى جوتجن وأتمها فى برلين حيث حصل على الدكتوراه سنة ١٨٣٥، وقد عين بعد تخرجه مستشارًا قانونيا فى آخن ثم استقال بعد عامين للتفرغ لأعمال الزراعة، وفى الثانية والثلاثين من عمره أصبح من المقربين فى بلاط فردريك الرابع ملك بروسيا.

وقد عمل بسمارك على جعل بروسيا أكبر وأقوى مملكة فى ألمانيا وأوربا على السواء وكان يرى أن ذلك لا يتأتى إلا باتحاد ألمانيا لأن ألمانيا إذا اتحدت ستقوى وتستطيع أن تفرض إرادتها على كل أوربا، وكان يرى أن تبتلع بروسيا ألمانيا، لا أن تذوب بروسيا فى قلب ألمانيا.

وكان بسمارك يعتقد أن الحكومة الأوتوقراطية هى السبيل الوحيد لاتحاد ألمانيا، وأن الآراء الحرة كالحكم النيابى وحقوق الإنسان لن توصله إلى هذا الاتحاد، وهذا يفسر موقفه من ثورة سنة ١٨٤٨ فى بروسيا التى استجاب فيها الملك لمطالب الأحرار التى تلخصت فى تشكيل برلمان دستورى على أساس انتخابات حرة كذلك حرية الصحافة. واجتمعت الجمعية الوطنية لوضع دستور بروسيا وأصبحت هذه الجمعية تحت سيطرة الحزب الجمهورى، فكان بسمارك يعارض هذه الجمعية وشارك فى إنشاء صحيفة «بروسيا الجديدة» وكانت تعبر عن وجهة النظر الملكية، وقد نجحت الجمعية الوطنية فى وضع الدستور الذى يقضى على نفوذ الملك وسطوته ولكن فى ذلك الوقت نجح القائد فندشجراتز فى سحق الثورة فى فيينا، فقام ملك بروسيا بتشكيل وزارة جديدة تحت رئاسة براند

الرجعى وتحرك الجيش إلى برلين لسحق الثورة وقضى على الجمعية الوطنية ومعنى ذلك القضاء تمامًا على الدستور ولكن الملك أصدر دستورًا جديدًا أعطى فيه شعبه بعض الحرية فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٤٨ وألف جمعية وطنية للتصديق عليه، وتقدم بسمارك لعضوية هذه الجمعية الجديدة.

وقد مات الملك فردريك فى يناير سنة ١٨٦١ بعد مرض طويل أسندت السلطة فى أثنائه إلى أخيه وليم ولم يكن الوصى على العرش راضيًا عن سياسة بسمارك فعين سفيرًا لبلاده فى روسيا خلال الفترة من أبريل سنة ١٨٥٩ إلى أبريل سنة ١٨٦٢ ثم عين سفيرًا لبلاده فى باريس من مايو سنة ١٨٦٢ إلى سبتمبر من نفس العام ثم استدعى إلى بلاده ليتولى منصب مستشار بروسيا.

مشكلة شلزويج – هلشتين:

كان ملك الدانمارك يحكم هاتين الدوقيتين منذ القرن الخامس عشر وكانت هلشتين ضمن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبعد سنة ١٨١٥ دخلت الاتحاد الألمانى فقد كان كل سكانها ألمانيين، أما شلزويج فكانت بها أقلية دنماركية فظلت خارج الاتحاد الألمانى، وكان قانون الوراثة فى الدوقتين يمنع النساء من اعتلاء العرش وكان فرع الأسرة الحاكمة فى الدنمارك على وشك الانتهاء وقد حاول ملك الدنمارك سنة ١٨٤٦ ضم شلزويج نهائيا إلى الدنمارك وذلك عندما رأى أن ابنه لن ينجب فأدى ذلك إلى النزاع مع الدايت الألمانى، وقد استغاث الألمان فى شلزويج وهلشتين ببرلمان فرانكفورت. وحاولت بروسيا تنصيب دوق أوجستنبرج حاكمًا عليهما، ولكن الدول الأوربية تدخلت وأجبرت بروسيا فى معاهدة لندن

سنة ١٨٥٢ على الموافقة على ألا يسرى قانون الوراثة وأن تحكم الدنمارك هاتين الدوقتين مع عدم انضمامها إلى الدنمارك.

الحرب ضد الدنمارك سنة ١٨٦٤:

اعتلى كريستيان التاسع عرش الدنمارك والدوقيتين فأصدر دستورًا جديدًا يضم شلزويج إلى الدنمارك، وقام دوق أوجستنبرج بالمطالبة بحقه فى حكم المقاطعتين، وكان الاتحاد الألمانى فى جانب دوق أوجستنبرج ولم يوافق بسمارك على هذا الحق، وقد نجح بسمارك فى خديعة النمسا فى أن تشاركه بجيوشها فى الهجوم على الدنمرك، وتقدمت جيوش الدولتين بروسيا والنمسا وعبرت حدود شلزويج وقاوم الدنماركيون بعد أن خدعهم بسمارك بأن أطلق إشاعة بينهم أن إنجلترا ستعاونهم تنفيذاً لقرارات معاهدة لندن سنة ١٨٥٢ وعندما احتجت إنجلترا بوجوب إحترام معاهدة لندن طالبت بروسيا والنمسا بانفصال الدوقتين عن الدنمرك وتوحيدهما تحت حكم دوق أوجستنبرج، ولم تكن إنجلترا مستعدة للحرب ولم يجد ملك الدنمارك أمامه سوى التنازل عن الدوقيتين لإمبراطور النمسا وملك بروسيا واقترحت النمسا أن يترك الحكم لدوق أوجستنبرج ورفض بسمارك واحتل ثغر كييل واعتبره من ثغور بروسيا وتأزم الموقف بين الدولتين وانتهى الأمر بعقد اتفاقية جاشتين فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٦٥ وبمقتضى هذه المعاهدة تحكم النمسا هلشتين وتحكم بروسيا شلزويج، كما اتفق على أن تتولى بروسيا الإشراف على قلاع كييل.

الحرب النمساوية البروسية ١٨٦٦:

كان فى اعتقاد بسمارك أن النمسا هى العقبة فى سبيل الاتحاد الألمانى

ولذلك لم يكن هناك بد من محاربتها ومهد لذلك بعقد اتفاق مع روسيا باعتبارها فى حالة الحرب مع النمسا وكذلك طلب مساعدة إيطاليا كما جرت اتفاقات بين بسمارك ونابليون الثالث بخصوص حياد فرنسا أيضا.

اتهم بسمارك النمسا بسوء إدارتها لهولشتين وتعضيدها لدوق أوجستنبرج، وعرضت النمسا مسألة الدوقتين على الدايت، فكان رد بسمارك - الذى اعتبر أن فى ذلك نقضا لمعاهدة جاشتين - أن أرسل جيوشه فاحتلت هولشتين وبذلك بدأت الحرب البروسية النمساوية فى منتصف يونيو سنة ١٨٦٦ وهزم جيش النمسا هزيمة منكرة فى بوهيميا فى موقعة سادوا وتعرف عند الألمان بموقعة كوننجراتز- ودخلت الجيوش البروسية أراضى النمسا فى طريقها إلى فيينا، إلا أن بسمارك رأى عقد الصلح لعدم رغبته فى جرح النمساويين لطمعه فى حيادهم، فهو لايريد أكثر من طرد النمسا من ألمانيا واعترافها بسيطرة بروسيا فى الدوقتين الدنماركيتين. كما كان يرى أن الصلح سيؤدى إلى عدم تدخل نابليون الثالث فى الحرب، وعقد الصلح فى براغ فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٦٦.

وكان من أثر هذه الحرب أن حل الاتحاد الألمانى، وقد انسحبت النمسا من هذا الاتحاد وتنازلت عن دعواها فى شلزويج وهلشتين كذلك أسس الاتحاد الألمانى الشمالى من الولايات الواقعة شمال نهر المين، وكان يرأسه ملك بروسيا، وقد حصلت بروسيا أيضا على ولايات هانوفر ونساو ومدينة فرانكفورت وبذلك توحدت أملاك بروسيا، أما الولايات الجنوبية الألمانية (بافاريا وفرتنبرج وبادن) فقد أبى أن يفرض عليها أى شروط للانضمام إلى الاتحاد الألمانى.

الاتحاد الألماني الشمالي:

وضع بسمارك دستورًا للاتحاد الشمالي ينظم الحياة السياسية لهذا الاتحاد، وكان دستورًا وافيًا أنشئ فيه برلمان، وكان انتخاب أعضائه بالاقتراع العام، ولم يعط هذا المجلس حق إسقاط الوزارة ولا السيطرة على أي من مشروعات الدولة، وكان للهيئة الدستورية حق النظر في شئون الاتحاد وتتمثل هذه الهيئة في المجلس التعاهدي، وكان عدد أعضائه اثنين وأربعين يمثلون حكومات ولايات الاتحاد الشمالي وكانت مداولاته سرية ويرأسه مستشار الاتحاد وهو مستشار بروسيا أيضا.

الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠:

طالب نابليون الثالث بلكسمبورج أوجزء من الأراضي الألمانية الجنوبية وذلك ثمنًا لوقوفه على الحياد وكذلك موافقته على تكوين الاتحاد الألماني الشمالي، ولكنه لم ينجح في ذلك فطلب شراء جزء من لكسمبورج (الجزء الهولندي وكان ملك هولندا قد أعلن عن بيعه في حالة موافقة بروسيا) ولكن بسمارك رفض ذلك، ودفع بسمارك الولايات الألمانية الجنوبية للاتحاد العسكري مع اتحاد الشمال وبذلك أصبحت ألمانيا - عدا النمسا - وحدة قوية وبدأ بسمارك في الاتجاه إلى محاربة فرنسا بعد أن عزلها سياسيًا، وضمن مساعدة روسيا في حالة دخول النمسا الحرب إلى جانب فرنسا، وكانت خطة فرنسا منذ القرن السابع عشر هي إضعاف ألمانيا وعرقلة الجهود في سبيل وحدتها ففرنسا تجد في الجزء الجنوبي من ولايات المانيا مجالا لنفوذها، وكان على بسمارك أن يحاربها ولكن كان عليه أن يبحث عن أسباب معقولة لذلك وقد سنحت له الفرصة عندما

قامت الثورة فى أسبانيا وطردت الملكة إيزابللا وأصبح العرش شاغرًا، وأوعز بسمارك بترشيح الأمير ليوبولد وهو من أسرة الهوهنزلزن لاعتلاء عرش أسبانيا، وخشيت فرنسا من هذا الترشيح، لأن أسرة الهوهنزلزن تحكم بروسيا وحاولت فرنسا لدى ملك بروسيا منع قبول هذا الأمير للعرش ووافق الملك على ذلك، وفى يولية سنة ١٨٦٩ تنازل ليوبولد عن ترشيح نفسه للعرش الأسبانى وكان انسحاب ليوبولد مما يفوت الفرصة على بسمارك ولكن عاد الفرنسيون وطالبوا ملك بروسيا بعدم الموافقة مستقبلاً أيضًا على هذا الترشيح ولكن الملك رفض هذا الطلب الذى قدمه السفير الفرنسى وأرسل الملك وكان يستشفى فى مدينة أمز برقية إلى بسمارك وترك له حرية نشرها فى الصحف إذا أراد وكانت فرصة لبسمارك فنشر هذه البرقية بطريقة توحى بأن الملك أهان السفير الفرنسى، واشتد غضب الرأى العام الفرنسى وأعلنت فرنسا الحرب فى سنة ١٨٧٠.

كان فى اعتقاد الفرنسيين أن تتحالف إيطاليا والنمسا معهم كما كان ينقصها التنظيم الحربى وذلك إلى جانب دقة تنظيم ألمانيا العسكرى وبراعة قائدها فون ملتكه، فتوالت انتصارات البروسيين، وانهزمت القوات الفرنسية بقيادة مكماهون فى ڤرت بالألزاس كما انهزمت القوات الفرنسية فى اللورين، وتخلى الإمبراطور الفرنسى لمرضه عن القيادة العليا لوزير الحربية بازين ولكنه لم يستطع وقف الزحف البروسى وأجبر على الانسحاب إلى متز وهناك استسلم للبروسيين وأخذ القائد الفرنسى مكماهون فى إعادة تنظيم قواته فى شارلون وتحرك إلى متز بناء على إصرار الإمبراطور وكان يرغب فى الدفاع أمام حصون باريس، واستطاع القائد البروسى فون ملتكه أن يهزم مكماهون فى سيدان قرب الحدود-

وفى ٢ سبتمبر وقع الإمبراطور أسيرًا وبذلك سقطت الإمبراطورية الفرنسية الثانية وأصبحت فرنسا جمهورية، وحاولت فرنسا مقاومة الأعداء، ولكن القوات البروسية إستطاعت أن تلحق بالفرنسيين الهزائم المتتالية وهددت الجيوش الألمانية كل شمال فرنسا، وحاصرت القوات البروسية باريس، واستسلمت المدينة بعد أن نفذت مؤونتها وتم عقد الصلح فى فرانكفورت فى ١٠ مايو سنة ١٨٧١، وبمقتضى هذا الصلح تنازلت فرنسا عن الألزاس بما فيها من صناعات وكذلك عن جزء كبير من شرق اللورين الغنى بالحديد، واحتفظت بحصن بلفورث مفتاح الألزاس، وكان الألمان يطلبون بهذين الإقليمين بحجة أن سكانهما ألمان ولأنهما اغتصبا من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كما تعهدت فرنسا بدفع غرامات حربية بلغ مقدارها مائتى مليون جنيه وأن تقبل احتلال بروسيا جانبًا من باريس.

وقد انضمت الولايات الألمانية الجنوبية إلى الاتحاد الذى تكون فى الشمال فقامت بذلك الإمبراطورية الألمانية، وفى ١٨ يناير سنة ١٨٧١ أعلن قيام الإمبراطورية الألمانية فى بهو المرايا بقصر فرساى وذلك قبل استسلام باريس بعشرة أيام.

لقد كان من نتائج الحرب الفرنسية البروسية أن أصبحت أوربا كلها. معسكرًا حربيًّا وازداد اهتمام الدول بتنظيم الجيوش وتدريبها لحماية أمنها.

الفصل الرابع

ألمانيا والحرب العالمية الأولى

(أ) بداية الحرب

زار فرنسوا فرديناند – ابن أخ إمبراطور النمسا وولى عهد النمسا والمجر – عاصمة البوسنة ساراجيفو فى يونية سنة ١٩١٤، وكانت البوسنة ميداناً للدعاية ضد النمسا والمجر، وقد تكونت بها جمعيات عسكرية، كما لم يكن فى الصرب رقابة على الصحف، وقد استغلت هذه الحرية إلى أبعد حد، وبات يؤرق الشباب حلم تحرير يوغسلافيا والاستشهاد فى سبيلها.

وفى صباح ٢٨ يونية سنة ١٩١٤ قتل ولى العهد وزوجته على يد أحد الشبان من البوسنة، فأوجد موته مشكلة عاتية بالنسبة للصرب ورأت فيها الحكومة النمساوية المجرية دليلا جديدا على الخطر الذى تمثله القومية اليوغسلافية عليها، وكذلك فرصة مواتية للانتقام من الصرب ومواجهة هذا الخطر فاتهمت الصرب بمسئوليتها عن هذا الحادث، ورأت القيام بحرب ضدها وأبلغت ألمانيا بذلك.

وكان موقف ألمانيا هو التأييد التام للنمسا فى أى إجراء ضد الصرب بل أوصتها بعدم ترك تلك الفرصة الملائمة للغاية.

وكانت النمسا والمجر (المملكة الثنائية) تسعى إلى قيام حرب سريعة بينها وبين الصرب وذلك حتى لاتتمكن روسيا من الدخول فى الحرب إلى جانب الصرب، وكانت خطة النمسا إرسال إنذار بشروط قاسية لاتقبلها الصرب ومن ثم تعلن الحرب عليها وأهم هذه الشروط والتى طلبت الرد عليها فى خلال ثمان وأربعين ساعة:

- إعلان حكومة الصرب بصورة رسمية عداءها للدعاية ضد المملكة الثنائية.

- أن تصادر المنشورات والمطبوعات وتلغى الجمعيات القائمة بهذه الدعاية.

- أن تطرد الموظفين المرتبطين بحملةالدعاية.

واشترطت النمسا أيضا قبول حكومة الصرب المعاونة من الموظفين النمساويين فى القضاء على حملة الدعاية ضد النمسا، وأن تقبل أيضا مساعدة الموظفين النمساويين فى التحقيق مع المتهمين فى قتل ولى العهد.

وقبلت الصرب هذه الشروط عدا قبول معاونة الموظفين النمساويين سواء فى القضاء على حملة الدعاية أوالتحقيق مع المتهمين، على أساس أن فى ذلك انتهاكا لحريتها وسيادتها.

والحقيقة أن الصرب لم تكن ترغب فى الحرب، فقد كانت تعانى عجزا فى الذخائر، كما أن روسيا لن تكون مستعدة تماما قبل عام ١٩١٧. أما موقف روسيا فكان عدم الموافقة على سحق صربيا وترك ميدان البلقان خاليًا للسياسة النمساوية والمجرية.

وأمام هذه الأزمة الدولية تحركت بريطانيا، وكان من رأى وزير خارجيتها أن الدول التى لامصالح لها فى البلقان مثل فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا يمكنها بذل مجهوداتها لوقف هذه الحرب، ولذلك دعى سفراء هذه الدول لعقد مؤتمر فى لندن لبحث الأزمة، ولكن ألمانيا رفضت إلا إذا كانت هذه الدعوة بناء على طلب من النمسا ومن ثم توقف مشروع تسوية الأزمة.

وفى ٢٩ يولية بدأت جيوش النمسا ضرب بلغراد واحتلتها،وهنا اقترحت بريطانيا أن تظل بلغراد وبعض المدن الصربية الأخرى بمثابة رهائن حتى تنتهى الوساطة، وأيد قيصر ألمانيا هذه الخطة ولكن القائد العام لألمانيا نصح النمسا بتعبئة قواتها ضد روسيا على أساس مساعدة ألمانيا لها وكان رأى وزير خارجية النمسا أن شروط النمسا يجب أن تقبل بدون قيد أو شرط، ولذلك وافق مجلس وزراء النمسا على رأيه وخاصة أن التعبئة العامة لم تتوقف فى روسيا.

والحقيقة أن الحكومة فى النمسا والمجر كانت ترى فى الآمال القوميةللسلافيين الجنوبيين تهديدًا لا لقوة المملكة الثنائية بل لوجودها نفسه، فنجاح أى حركة تحررية ستؤدى بالتالى إلى نجاح حركات أخرى، وتتفكك بذلك أركان المملكة الثنائية، ولذلك كان التصميم واضحا فى القضاء على الصرب – وهذا يفسر عدم قبول النمسا لأى وساطة أو تسوية، فهى تريد القضاء على الصرب لاتهدئة دولية ليعود البركان للاشتعال مرة أخرى.

ومع إعلان الحرب ضد الصرب وضرب بلغراد، قررت روسيا حشد التعبئة الجزئية وبدأ الصدام النمساوى الصربى وكأنه صدام نمساوى

روسى، وربما كان الوقت يسمح بتجنب الصدام، فقد واجه المجتمع الأوربى أزمات استطاع اجتيازها، ولكن رفض النمسا والمجر الدخول فى المفاوضات التى اقترحتها بريطانيا جعل الحرب النمساوية الروسية على وشك الوقوع، وعجلت الحكومة الروسية فى ٣٠ يولية فى النهاية بإعلانها التعبئة العامة لقواتها المسلحة، وردت ألمانيا فى ٣١ يولية بإنذار لروسيا وفرنسا بإعلان حالة خطر الحرب، وفى اليوم التالى قررت التعبئة العامة،كما أعلنت النمسا التعبئة العامة فى ٣١ يوليو ضد روسيا.

وكانت ألمانيا تعلم أن فرنسا ستقوم بتقديم المساعدة لروسيا. ولذلك بنت خطتها العسكرية على أن تبدأ بفرنسا فى هجوم خاطف فإذا هزمت فرنسا تتجه القوات الألمانية نحو الجبهة الروسية، وكان يهم ألمانيا سرعة هذا الهجوم فتقدمت إلى فرنسا بطلب لإيضاح موقفها إذا ما قامت الحرب بينها وبين روسيا، وطلبت فى حالة حيادها تسليم قلعتى تول وفردان لألمانيا، وكان رد فرنسا بأنها ستتخذ ما تراه يخدم مصالحها.

وبدأت فرنسا إجراءاتها العسكرية الأولى يوم ٢٥ يولية وفى يوم ٣٠ اتخذت خمسة جيوش مواقعها للدفاع على طول الحدود - رغم دعوة احتياطى الجيش - كما اتخذت فرنسا نطاقا من عشرة كيلو مترات حول الحدود الفرنسية انسحبت وراءه القوات الفرنسية،وبعد إعلان ألمانيا الحرب على روسيا فوضت الحكومة الفرنسية للجيوش الخمسة اتخاذ جميع الخطوات اللازمة للدفاع عن أمن فرنسا وحدودها. وفى ٣١ يولية أعلنت فرنسا التعبئة العامة.

وكان رد المانيا على ذلك إعلان الحرب عليها فى ٣ أغسطس، ورغم حياد بلجيكا وتوقيع المانيا وفرنسا على هذا الحياد، إلا أن خطة المانيا

اتجهت اليها لمهاجمة فرنسا عن طريقها، فاحتلت القوات الألمانية لكسمبرج فى ٣ أغسطس وقدمت المانيا إنذارا الى بلجيكا للسماح لقواتها بالمرور إلى حدود فرنسا وأنذرتها فى حالة الرفض باعتبارها عدوة لألمانيا، ورفضت بلجيكا هذا الإنذار فهاجمت القوات الألمانية حدودها.

وإلى هذا الوقت كان موقف بريطانيا والرأى العام خاصة هو معارضة الدخول فى الحرب، رغم أن وزير الخارجية كان يرى الوقوف بجوار فرنسا وروسيا فى حربها ضد ألمانيا والنمسا، وقد حاولت بريطانيا أن تتجنب الصدام الأوربى. فالبعض يرى أن هذا الانتهاك هو السبب الحقيقى فى دخول إنجلترا الحرب والواقع أن الدخول فى هذه الحرب قد وافقت عليه الوزارة البريطانية قبل انتهاك حياد بلجيكا بأربع وعشرين ساعة، فدخول بريطانيا الحرب يرجع بالدرجة الأولى لعدم تعرض أمنها للخطر بانتصار ألمانيا على القارة الأوربية.

وقد أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا فى ٥ أغسطس، ودخل الجبل الأسود فى جانب الصرب.

وفى شهر سبتمبر تحول الوفاق بين روسيا وفرنسا وإنجلترا إلى تحالف عسكرى وهكذا تحدد موقف دول أوربا عدا إيطاليا ورومانيا.

وكانت إيطاليا عضوا فى التحالف الثلاثى النمساوى الألمانى، ولكن النمسا هاجمت الصرب بدون أخذ رأى إيطاليا، ولذلك كان موقف إيطاليا هو عدم مسئوليتها عن أى التزام مادامت النمسا هى المعتدية على الصرب، وأعلنت فى ٣ أغسطس حيادها والواقع أن إيطاليا خشيت أن يقوم الأسطول البريطانى بمهاجمة سواحلها.

أما رومانيا فقد تمسكت بالحياد وما كاد عام ١٩١٤ يقترب من نهايته

حتى انضمت اليابان للحلفاء أى إنجلترا وفرنسا وروسيا وأعلنت الحرب على المانيا.

ونظرا للنفوذ الألمانى سواء الدبلوماسى أو العسكرى فى تركيا فقد كان واضحا أنها ستقف بجوار المانيا وخاصة أن روسيا هى العدو التقليدى لتركيا. وفى ٢ أغسطس وقعت معاهدة بين تركيا وألمانيا تشترك بمقتضاها تركيا فى الحرب وذلك فى حالة دخول روسيا الحرب، وفعلا تلا ذلك إغلاق تركيا الدردنيل فى وجه روسيا وهاجمت السفن التركية المدن الروسية على البحر الأسود، فأعلنت روسيا الحرب على تركيا، وتلا ذلك إعلان فرنسا وإنجلترا الحرب على تركيا.

وهكذا انقسم العالم الأوربى إلى كتلتين متصارعتين ألمانيا والنمسا وتركيا فى كتلة، ضد روسيا وفرنسا وإنجلترا واليابان وبلجيكا والصرب والجبل الأسود وأطلق على الكتلة الأولى دول الوسط وأطلق على الكتلة الثانية قوى الوفاق.

بدأت الحرب وكان لكل من المعسكرين مصدر قوة ومصدر ضعف فالدول المركزية أكثر تماسكًا فى وحدتها الجغرافية وقد ساعدها ذلك فى سرعة الاتصال ونقل الجنود بعيدًا عن الاشتباك مع الحلفاء، يقابل ذلك تفكك دول الحلفاء جغرافيا وسياسيًّا، فروسيا منعزلة وموارد الإمبراطورية البريطانية كثيرة ولكنها متفرقة فى شتى أنحاء العالم، وإلى جانب ذلك وحدة القيادة فى الدول المركزية فقد تولت ألمانيا قيادة دول الوسط ومسئولية وضع الخطط، وكان ذلك فى الحقيقة ينقص دول الحلفاء. على أنه من ناحية أخرى كانت القوى البشرية والامكانيات الاقتصادية لدول

الحلفاء تفوق بكثير دول الوسط كما كان للوفاق التفوق البحرى، وقد ساعدهم ذلك كثيرًا فى محاصرة أعدائهم.

(ب) الحرب بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٦

كان التفوق خلال الأعوام من ١٩١٤-١٩١٦ فى جانب الدول المركزية وبعد ذلك تغير الميزان العسكرى وانتهت الحرب بهزيمة الدول المركزية.

خطة ألمانيا:

كانت خطة ألمانيا أن تتقدم إلى فرنسا محرزة نصرًا سريعًا، وأن تترك حامية صغيرة فى ألمانيا الشرقية، وذلك على أساس صمود النمسا والمجر أمام روسيا لمدة ستة أسابيع، وهى مدة كافية فى نظر الألمان لسقوط باريس، وبعد ذلك تتوجه القوات الألمانية إلى الجبهة الشرقية ولكن بلجيكا قاومت مقاومة باسلة أدت إلى تأخر هذا الهجوم الألمانى.

وقد حدث أول التحام بين القوات الألمانية وبلجيكا عند حصن لييج على حدود بلجيكا، وقاتلت الحامية البلجيكية ببسالة وعطلت تقدم الجيش الألمانى يومين أو ثلاثة وهو مالم يحسب حسابه الألمان قط ولكن مهما كانت شجاعة القوات البلجيكية فلم تكن لتقف أمام القوات الألمانية الرهيبة فاستسلمت بروكسل فى ٢٠ أغسطس، وانسحب معظم الجيش إلى أنتورب حيث شكل تهديدا للجناح الألمانى الزاحف.

وقد استفادت ألمانيا من غزو بلجيكا فى مهاجمة شمال فرنسا وكسبت فحم بلجيكا وحديد اللورين الفرنسى وأصبحت قواتها العسكرية على

بعد ٢٥ ميلا من باريس و٦٥ ميلا من ساحل إنجلترا.

ولم تكن خطة ألمانيا للهجوم على باريس وليدة الساعة فقد وضعها الكونت شيلفن فى سنة ١٩٠٥ وأقرت رسميًا فى سنة ١٩١٢ وتتلخص هذه الخطة فى مهاجمة المناطق المحايدة أى لكسمبرج وبلجيكا حيث التحصينات الفرنسية غير محكمة فتتدفق القوات عبر بلجيكا ولكسمبرج إلى شمال فرنسا ومنها إلى باريس، وتقوم القوات الألمانية فى أقصى اليمين بالمرور بغرب باريس والالتفاف حولها من الجنوب وبذلك تسقط باريس.

وقد أدخل مولتكه رئيس أركان حرب الجيش الألمانى بعض التعديلات فى هذه الخطة حيث أضاف الجناح الأيمن الألمانى الذى يقوم بالالتفاف فى خطة سيلفن.

وكان التقدم الألمانى كاسحا إلا أنه خفف منه سحب كتيبتين أرسلتا إلى روسيا فى ٢٥/٢٦ أغسطس، ورغم ذلك كان الجيش الألمانى يكتسح الطريق أمامه إلى باريس.

وقد عهد إلى الجنرال جالينى بمهمة الدفاع عن باريس على رأس جيش جديد، وكانت القيادة الألمانية العليا لا تزال فى لكسمبرج فكان ذلك سببا فى فقد اتصالها بالمعارك بل توقفت أوامر القيادة اعتبارا من ٦ سبتمبر، وأمام تخبط القوات الألمانية والدفاع والهجوم المستميت للقوات الفرنسية والبريطانية تقهقرت الجيوش الألمانية إلى المارن فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٤ وأنقذت باريس، بناء على عجز القيادة الألمانية فى السيطرة على قواتها.

الجبهة الشرقية:

هاجمت القوات الروسية بروسيا الشرقية بجيشين كبيرين لكل قائد، ولم يكن العمل متناسقًا بين القائدين، فكان الانتصار الألمانى ساحقًا، فقد تمكن القائد الألمانى فون هند نبرج فى موقعة تاننبرج من صد الهجوم الروسى عن بروسيا الشرقية وذلك بالقضاء على أحد الجيشين وانسحاب الجيش الثانى بعد تكبده خسائر جسيمة إذ بلغت خسائر القوات الروسية ما يقرب من ربع مليون بين أسير وقتيل.

ولم تؤثر تلك الهزيمة على الروس، فلم تكد تمضى ثلاثة أسابيع على فشلهم فى بروسيا الشرقية حتى هاجموا غاليسيا وكانوا على معرفة بخطط أعدائهم واستولوا على ثلثى غاليسيا.

ولو قدر للجيش الروسى النصر فى بروسيا الشرقية إلى جانب النصر فى غاليسيا لتغير ميزان القوى تماما خلال الأسابيع الأولى للحرب لصالح الحلفاء.

أما دولة النمسا والمجر فقد فشلت فى جبهة البلقان وفى احتلال الصرب فقد هزم جيش الصرب الصغير تلك القوات النمساوية المجرية.

حملة الدردنيل:

شددت تركيا من قبضتها على المضايق وقد اقترحت روسيا قيام حملة من فرنسا وإنجلترا (حملة الدردنيل) لفتح المضايق بين البحر المتوسط والأسود للحد من ضغط تركيا وللضغط على باقى الدول المحايدة للدخول فى الحرب إلى جانب الحلفاء.

وكانت هذه الحملة باهظة النفقات عديمة الجدوى، وفى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٤، ضربت المدمرات البريطانية قلاع الدردنيل الحصينة على أن تنفذ الحملة فى يناير سنة ١٩١٥ واستؤنف الضرب مرة أخرى فى أواخر فبراير ثم أخفقت محاولة الاستيلاء على المضايق بواسطة السفن، وفى أبريل أنزلت حملة برية للتعاون مع القوى البحرية لإخضاع الأتراك وفتح الطريق إلى روسيا، ولكن الأتراك كانوا مستعدين للقائها ولم تجد الحملة بدا من الجلاء.

وقد دخلت إيطاليا الحرب الى جانب الحلفاء فى أبريل سنة ١٩١٥ بعد أن تعهد الحلفاء بمنحها ترنتينو وجنوب التيرول إلى جانب بعض المناطق والجزر وامتداد أملاكها فى أفريقيا على حساب ألمانيا.

أما فى الجبهة الشرقية الروسية فقد كان موقف دول الوسط متفوقا بقيادة الجنرال الألمانى ماكنزن، وقد بدأ الهجوم الألمانى النمساوى المضاد فى غاليسيا، فأسفر عن هزيمة ساحقة للروس وطردوا من بولندا فى مايو سنة ١٩١٥ وأجزاء من لتوانيا، وفى ذلك الوقت دخلت بلغاريا الحرب إلى جانب دول الوسط.

وفى أكتوبر سنة ١٩١٥ قامت دول الوسط بهجوم على الصرب ناحية النمسا وبلغاريا واستمر الهجوم لمدة شهرين فانهار الجيش الصربى بعد أن أنهكته حمى التيفوس وفر عبر ألمانيا بعد أن فقد نصف رجاله وأسلحته، ودخلت القوات الفرنسية والبريطانية الأراضى اليونانية ولكنها لم تستطع حماية الصرب، وقنعت بالاستيلاء على سالونيك لاتخاذها قاعدة وبقوا فى سالونيك ثلاث سنوات.

الحرب فى عام ١٩١٦:

فى مطلع عام ١٩١٦ عقدت الدول المتحاربة العزم على أن تكون هذه السنة هى الفاصلة فى المعارك وخاصة فى الغرب واختار الألمان جبهة فردان الفرنسية كهدف للهجوم لتسقط فرنسا وألا يصبح أمام بريطانيا إلا طلب الصلح بعد سقوط أقوى حلفائها.

وكان غرض الألمان من الهجوم المركز على فردان أن تتدفق القوات الفرنسية فتتحطم أمام فردان وحقيقة تحطمت كثير من الفرق أمام فردان، وكانت الخسائر الفرنسية رهيبة أمام خسائر الألمان ولكن لم يغل ذلك يد فرنسا.

وكان رد الحلفاء على ذلك اختيارهم لجبهة السوم البريطانية ميدانا لهجوم مضاد.

وبدأ فى يولية هجوم بريطانى فرنسى مشترك فى جبهة السوم واستمر حتى أكتوبر، وقد استخدم البريطانيون الدبابة لأول مرة فى سبتمبر وذلك لتخفيف الضغط الألمانى فى فردان.

وقد تقدمت إنجلترا وفرنسا ثلاثين ميلا بعد أن منيتا هما والألمان بخسائر رهيبة، وزاد من خسائر ألمانيا ضعف الروح المعنوية للجيش الألمانى ورغم أن الهجوم لم يؤد إلى انهيار خطوط الدفاع الألمانية إلا أنه نجح فى الهدف منه، وهو تخفيف الضغط الألمانى فى فردان كما أن الحلفاء أصبحوا مهاجمين بدلا من مدافعين.

وقد كان لهذا الهجوم البريطانى الفرنسى المشترك أهميته فألمانيا كانت

تعتمد فى خطتها سنة ١٩١٦ على هزيمة فرنسا وعقد الصلح، وخاصة أن الأسطول الألمانى قد لقى الهزيمة أمام الأسطول البريطانى فى سنة ١٩١٤ فى موقعتين عند سواحل شيلى، وجزائر فوكلاند بأمريكا الجنوبية وأعلنت بريطانيا أن بحر الشمال منطقة حربية. وحاولت ألمانيا تحدى التفوق البحرى البريطانى باستعمال الطرادات فى إغراق السفن التجارية الإنجليزية، ولما فشلت هذه الطريقة، استخدمت الغواصات، ولكن ألمانيا قيدت استخدام الغواصات بعد إغراق الباخرة لوزيتانيا فى مايو سنة ١٩١٥، لتألب الرأى العام الدولى ضدها وبخاصة أمريكا التى فقدت ١٠٠٠ من رعاياها فى هذه الباخرة.

وقد استخدمت ألمانيا أسطولها مرة أخرى بعد هذه الحادثة واشتبكت مع الاسطول البريطانى فى موقعة جتلند فى مايو سنة ١٩١٦ التى هزم فيها الأسطول الألمانى، وإن كبد الأسطول البريطانى خسائر جسيمة ولكن كانت هذه المعركة نهاية المعارك البحرية الألمانية حتى نهاية الحرب.

أصبح الموقف الحربى: فشل الألمان فى فردان وهجوم بريطانى فرنسى فى سوم، ونجاح الايطاليين فى الدفاع فى جبهة ترنتينو، وهنا دخلت رومانيا الحرب إلى جانب الحلفاء، على أن دول الوسط تمكنت من غزو رومانيا، وأفادت ألمانيا من حقول بترولها.

ويمكننا أن نقول بوجه عام أن الجبهة الغربية حتى ذلك الوقت كانت فى صالح ألمانيا،ولكن يقابل ذلك انتصار للحلفاء فى الشرقين الأوسط والأدنى. فقد دخلت حملة بريطانية تابعة لقيادة الهند فى أوائل سنة١٩١٦ الخليج العربى ثم دخلت العراق والتحمت مع الأتراك فى معركة (كوت العمارة) وانتصر الأتراك أولا، ولكن مالبث أن وصلت الامدادات

البريطانية بقيادة ستانلى مود الذى أخذ فى إعداد قواته عدة شهور، وتقدم فى ديسمبر ١٩١٦، وفى فبراير من العام التالى استولى على كوت العمارة ثم بغداد وبذلك أصيبت دول الوسط بنكسة بهزيمة الأتراك، كما أعلن شريف مكة الشريف حسين سنة ١٩١٦ الثورة على السلطنة العثمانية، وأعلن استقلال الحجاز ولقبْ نفسه ملكًا.

وقد اعترفت بريطانيا بذلك وكانت قد جرت المكاتبات بين الشريف حسين والمعتمد البريطانى فى مصر سير هنرى مكماهون منذ يوليو سنة ١٩١٥ومؤداها مساعدة بريطانيا للدول العربية بشأن استقلالها وقيام دولة عربية كبرى تحت إمرة الشريف حسين على أن يقوم من جانبه بمساعدة بريطانيا فى حربها ضد الدولة العثمانية فى الشرق الأدنى.

وقد أدت هزيمة الأتراك وثورة الشريف حسين إلى عقد اتفاقية إنجليزية فرنسية روسية وتعرف باتفاقية سايكس بيكو فى مايو سنة ١٩١٦، وقد تم عقد هذه الاتفاقية على شكل مذكرات دبلوماسية تبادلتها حكومات الدول الثلاث، واعترفت فيها كل دولتين بحق الدولة الثالثة فى أجزاء من الإمبراطورية العثمانية بعد تقسيمها.

وفور سقوط رومانيا رأت ألمانيا أن الفرصة مواتية لها لطلب الصلح، فقدمت مذكرة لدول الحلفاء مقترحة مفاوضات الصلح، ولكنها لم تحدد شروطا واضحة لهذا الصلح. ورد الحلفاء بمذكرة مشتركة رفضوا فيها اقتراح ألمانيا خشية ان تكون محاولة للتأثير على سير المعارك.

وفى أواخر سنة ١٩١٦ اتصل الرئيس ولسون بالفريقين المتحاربين اتصالا رسميًا وذلك لعقد الصلح- وعرضت المانيا اقتراحا باجتماع ممثلى الدول المتحاربة فى مؤتمر وذلك فى بلد محايد، أما الحلفاء فقد اشترطوا

شروطا لايمكن قبولها كأساس لعقد الصلح، ومن هذه الشروط إعادة بلجيكا والصرب والجبل الأسود مع تعويض لكل منها. وكذلك الجلاء عن المناطق المحتلة فى فرنسا وروسيا ورومانيا مع التعويض اللازم لكل من هذه الدول، كما اشترطت أيضا طرد العثمانيين من أملاكهم فى أوربا إلى غير ذلك من الشروط التى ماكان لألمانيا أن تقبلها.

وواضح أن الحلفاء وضعوا شروطًا مهينة حتى لاتقبلها المانيا فتستمر الحرب وكان غرض الحلفاء هزيمة المانيا وانهيارها، وكانت ألمانيا تعلم تمامًا أن استمرار الحرب لمدة طويلة سينتهى لصالح الحلفاء وبعد رفض محاولة الصلح لم يكن أمام ألمانيا إلا التفكير فى إنهاء هذه الحرب بسرعة.

(جـ) الحرب فى عامى ١٩١٧ و ١٩١٨

تطلعت ألمانيا فى بداية سنة ١٩١٧ إلى الميدان البحرى، وكانت أساطيل الحلفاء وخاصة بريطانيا قد أحكمت حصار شواطئ المانيا وحلفائها، وقبع الأسطول الألمانى فى موانيه مما أدى إلى وجود أزمة فى الغذاء فى المانيا وكذلك فى النمسا والمجر.

حرب الغواصات:

اهتدى تفكير ألمانيا إلى شن حرب غواصات غير مقيدة، وكانت ألمانيا تهاجم سفن الحلفاء ولا تتعرض للسفن المحايدة، وكان هذا الحل العسكرى أى شن حرب الغواصات غير المقيدة مطلبا للعسكريين لأنه الطريقة الوحيدة فى نظرهم لهزيمة الحلفاء ولم يكن المستشار الألمانى يؤيده ولكن بعد فشل محاولات السلام وإلحاح القادة الألمان وافق المستشار

الألمانى ومجلس الدايت على ابتداء هذه الحرب أى - الغواصات غير المقيدةسنة ١٩١٧، وهذا أخطر قرار اتخذته ألمانيا منذ بداية الحرب، وكان رأى رجال الأسطول الألمانى أن حملة ضارية للغواصات لابد أن تقضى على مؤن إنجلترا وإمداداتها وتنهى هذه الحرب، وأن استمرار هذه الحملة ستة أشهر أو اثنى عشر شهرا يؤدى إلى هلاك إنجلترا.

جاء قرار حرب الغواصات فى وقت كانت العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة ودول الوسط فى غاية التوتر، فقد قام ممثلو دول الوسط فى أمريكا بتكوين شبكة جاسوسية تضم مجموعة من المتآمرين، فطلبت الولايات المتحدة سحب سفير النمسا والمجر فى أوائل سنة ١٩١٧ وفى فبراير من نفس العام طلبت من السفير الألمانى مغادرة الأراضى الأمريكية، وكانت ألمانيا قد أبلغت فى ٣١ يناير سنة ١٩١٧ الحكومة الأمريكية أنها ستمنع بالقوة بعد أول فبراير سنة ١٩١٧ الملاحة فى منطقة حول بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وفى شرقى البحر المتوسط، وأنها ستغرق كل سفينة تلتقى بها هذه المناطق حتى سفن الدول المحايدة.

دخول الولايات المتحدة الحرب:

إزاء هذا التهديد الألمانى قطعت الولايات المتحدة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، وخلال شهرى فبراير ومارس اعتدت الغواصات الألمانية على عدد من السفن الأمريكية وهددت حركة التجارة الأمريكية فأعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا وذلك فى أبريل سنة ١٩١٧.

دخلت الولايات المتحدة الحرب متأخرة فلم تكن قد تأثرت بما حل

بغيرها من نكبات إلى جانب أنها أمة ذات موارد وثروات غير محدودة، وكان تأثير الأمريكيين فى الحرب واضحا فى الميدان الغربى.

الجبهة الغربية:

قام الفرنسيون فى جبهة فردان والإنجليز فى جبهة السوم بهجوم عنيف فى الجبهة الغربية وذلك قبل اشتداد ضغط الغواصات، وقد أسفر هذا الهجوم عن اندحار لقوات الوفاق، إلى جانب قيام تمرد بين الجنود الفرنسيين الذين وهنت عزيمتهم من كثرة الخسائر، فأسندت قيادة الجيش الفرنسى فى الجبهة إلى بيتان الذى استطاع إعادة تنظيم قواته، وقام الجيش الإنجليزى بهجمات متتالية على الجيش الألمانى فارتدت القوات الألمانية إلى الخلف دون أن يتمكن الإنجليز من اقتحامها وبذلك أنقذ الجيش الفرنسى.

الجبهة الشرقية:

وفى الميدان الشرقى أدت مساعدة العرب للإنجليز إلى استيلاء الجنرال اللنبى على غزة ويافا، وفى ديسمبر سنة ١٩١٧ دخل بيت المقدس، ولكن هذا النجاح بالنسبة للحلفاء كان يقابله تغيرات كبيرة فى روسيا فقد قامت الثورة فى مايو وعزل القيصر وقضى على الملكية، وأقيمت بعد تنازل القيصر حكومة مؤقتة من الأحرار والاشتراكيين المعتدلين، وأصبح كيرنسكى زعيم الأحرار رئيسا للحكومة المؤقتة، ولما كان الحلفاء يخشون خروج روسيا من الحرب فقد استمروا متصلين بكيرنسكى يحضونه على عدم إيقاف الحرب، وقد حاول كيرنسكى مواصلة الحرب وأحرز فعلا بعض الانتصارات فى هجومه على الخطوط

الألمانية والنمساوية فى شمال الروسيا. ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بهذه الانتصارات عند بدء الهجوم الألمانى بسبب فرار الجنود، فخارت قوى الجيش وأصبح بلا قائد وهزم فى أغسطس، فعزل البلاشفة كيرنسكى فى أكتوبر ونجحوا فى إسقاط الحكومة السوفيتية المؤقتة وتكوين الدولة السوفيتية الاشتراكية، وقد عقدت روسيا الهدنة مع الألمان فى ديسمبر سنة ١٩١٧ ووقع الصلح فى مارس سنة ١٩١٨ (برست ليتوفسك) وبمقتضى ذلك الصلح تنازلت روسيا عن ولايات ساحل البلطيق (فنلندا واستونيا وكورلاند ولتوانيا وبولندا وأوكرانيا) لتكون حكوماتها كما تشاء كل منها وكذلك حل الجيش والأسطول.

وتبعت روسيا رومانيا فعقدت معاهدة بخارست مع ألمانيا فى مارس سنة ١٩١٨ بشروط مهينة أيضا.

لقد كان الموقف الحربى فى أوائل سنة ١٩١٨ غير حاسم،ولكن خروج روسيا من الحرب أعطى الأمل لألمانيا فى الإيقاع بالحلفاء رغم خسائرها الرهيبة فى الرجال ونقص المواد، ورغم سوء حالة النمسا والمجر، ورغم إخفاق حملة الغواصات غير المقيدة فى قطع طرق المواصلات البحرية بين أمريكا وأوربا.

نقاط ولسون الأربع عشرة:

تبلورت الخطة الألمانية عن حشد القوات العسكرية على الجبهةالغربية والهجوم من نقطة التقاء القوات الفرنسية والإنجليزية، وساور الاعتقاد القيادةالعسكرية الألمانية أنه فى إمكانها بهذه الخطة إنهاء الحرب فى الجبهة الغربية فى مدى أربعة شهور، ولذلك حين جاء إعلان

ولسون عن أهداف الحلفاء من الحرب والمعروف بنقاط ولسون ١٤ رفضتها دول الوسط، وجاءت هذه النقاط فى خطاب الرئيس ولسون فى يناير سنة ١٩١٨ أمام الكونجرس الأمريكى، أما هذه النقاط مع الاختصار فهى:

- مواثيق علنية للصلح أى نبذ المعاهدات السرية.
- حرية الملاحة فى البحار فى وقت السلم والحرب.
- إزالة جميع الحواجز الاقتصادية وإقامة المساواة فى شئون التجارة بين جميع الدول.
- تخفيض التسلح إلى أدنى حد يضمن السلام الداخلى.
- تنظيم المطالب الاستعمارية للدول وفقًا لمصالح سكان المستعمرات.
- الجلاء عن روسيا.
- الجلاء عن بلجيكا
- الجلاء عن فرنسا وإعادة الألزاس واللورين
- تعديل حدود إيطاليا بما يتفق صراحة مع انتشار قوميتها.
- إعطاء فرصة حرة للتحكم الذاتى للشعوب الداخلة فى نطاق إمبراطورية النمسا والمجر.
- الجلاء عن رومانيا والصرب والجبل الأسود مع منح الصرب منفذا على البحر الادرياتيكى.
- منح حكم ذاتى للقوميات الداخلة تحت الحكم التركى وفتح الدردنيل كطريق حر لجميع السفن للتجارة وفق ضمانات دولية.
- إقامة دولة بولندية حرة مع إيجاد ممر لها على البحر.
- تأليف ارتباط عام بين الأمم بقصد توفير الضمانات المتبادلة

لتحقيق الاستقلال السياسي والتكامل الجغرافى للدول الصغيرة والكبيرة على السواء وهو الذى تمخض عنه منظمة عصبة الأمم.

موقف ألمانيا من نقاط ولسون:

رفضت ألمانيا هذه النقاط اعتقادا منها أنه بإمكانها الانتصار السريع فى الجبهة الغربية وواجه الحلفاء هذا التخطيط الألمانى بتوحيد سياستهم العسكرية وأنشئ مجلس عال للحرب، ووضعت القيادة العليا فى يد القائد الفرنسى فوش.

وقد قام الألمان بهجوم فى ٢١ مارس على الجبهة الغربية فى جبهة طولها ٤٣ ميلاً، وتمكنوا من اكتساح الجيش الخامس البريطانى فى منطقة السوم، ولكن الحلفاء أمكنهم وقف التقدم الألمانى، وقام الألمان بهجوم ثان فى ٩ من أبريل واستمر هذا الهجوم حتى قرب نهاية الشهر.

وفى ٢٧ من مايو قام الألمان بهجوم على شيمان دى دام وهزموا الفرنسيين والبريطانيين وأسروا نحو ٦٠ ألفا من الحلفاء، ووصل الألمان إلى المارن.

وبدأ الهجوم الرابع فى ١٥ من يوليو ولكن تمكن الفرنسيون من صده بقليل من الخسائر.

فشلت هذه العمليات الهجومية الأربعة فى القضاء على قوات الحلفاء بل بدأ القائد الكبير فوش فى أغسطس بهجوم مضاد عنيف، فارتد الألمان مسرعين وأسر منهم ثلاثون ألفا، وطوال شهر سبتمبر توالت هجمات فوش على الألمان، وأسفرت عن تراجعهم وهزيمتهم فاضطروا إلى إخلاء فرنسا وجزء كبير من بلجيكا.

وقد انتصر الحلفاء أيضا فى الميدانين الشرقى والبلقانى، فقد وقعت بلغاريا فريسة لمنازعات وثورات كثيرة وظهر العصيان والفساد والفرار فى الجيش، فلم تجد الحكومة بدًّا من عقد الهدنة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١٨، واضطر الأتراك أيضًا إلى قبول الهدنة فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨.

إمبراطورية النمسا والمجر:

كادت إمبراطورية النمسا والمجر أن تنهار داخليًّا على يد العناصر القومية الراغبة فى التحرر والاستقلال وهى القومية التشيكية والسلافية الجنوبية (اليوغسلافية) والبولندية، وقد أدت هذه القوميات مساعدات فعالة للحلفاء.

وقد حاول شارل إمبراطور النمسا إنقاذ العرش فأصدر فى أكتوبر منشورا بعزمه على تكوين دولة فدرالية تكون كل قومية عضوا فى الاتحاد الفدرالى ولها الحق فى تشكيل دستور خاص بها. وكان الغرض من هذا الإعلان تهدئة القوميات الثائرة، ولكن لم يقع المنشور موقع الترحيب من القوميات المختلفة، فهى لاتبغى غير الاستقلال التام، إلى جانب أن هذا المنشور أدى إلى استياء المجر واعتبرته إعلانا بإنهاء الحكم الثنائى بين الدولتين، وأمام هذه الاضطرابات انهالت الهزائم على النمسا، وبعد أن نضبت كل مواردها طلبت الهدنة وبذلك بقيت ألمانيا وحيدة وسط أوربا أمام الحلفاء.

حالة ألمانيا وسقوطها:

تقدم القائد الألمانى لدندورف فى سبتمبر بنصيحة لحكومته بطلب الصلح، وكان فى رأيه أن ألمانيا مهزومة لامحالة،ثم استقال المستشار الألمانى

هرتلنج وهو من أنصار الحرب، وخلفه الأمير ماكس فى هذا المنصب، وكانت سياسة ماكس أن يسعى لطلب الصلح مع الاحتفاظ بالأسرة الحاكمة وقد تعرضت المانيا فى ذلك الوقت لحركة ثورية اشتراكية، ونادت بعقد الصلح والإفراج عن المعتقلين السياسيين وحرية الاجتماع والصحافة وقدمت للحكومة إنذاراً بذلك، وقابلت الحكومة الإنذار بالعنف، واتبعت سياسة إرسال الثوار إلى ميادين القتال للتخلص منهم، غير أنهم نشروا آراءهم بين الجنود مما ضاعف من خطورة الموقف الداخلى لألمانيا.

أمام تلك الأحداث، اتجه ماكس إلى تحويل الحكومة والدستور الألمانى إلى حكومة ودستور ديمقراطى، لإرضاء العناصر الاشتراكية المعتدلة، وتجنيب البلاد خطر الثورة وهى ما زالت فى الحرب إلى جانب أن ذلك يؤدى إلى إنقاذ العرش الألمانى، وأعلن ماكس هذا البرنامج وهو إيجاد وزارة مسئولة أمام مجلس نيابى على أن يكون لهذا المجلس الحق فى إعلان الحرب أو عقد السلم كما أصدر سلسلة قوانين لتهدئة الثوار كقانون العفو عن المسجونين السياسيين وحرية الصحافة والاجتماع.

ولكن الشعب الألمانى رغم هذه الاصلاحات كان قد عقد العزم على خلع الامبراطور وشعر الإمبراطور بذلك فهرب من برلين. ثم جاءت الضربة الأخيرة على يد رجال البحرية الألمانية فإن قيادة البحرية الألمانية أدركت أن شروط الهدنة تنص على تسليم ألمانيا لأسطولها، فأصدرت أمرا باشتراك الأسطول فى معركة مع الأسطول البريطانى، وأدرك البحارة أن هذه المعركة لامعنى لها وخاصة أن الهدنة كانت تعد فى ذلك الوقت، فرفضوا الأوامر وتمردوا وانضموا إلى قوات الجيش وطالبوا

بعزل الإمبراطور وإنشاء الجمهورية وإيقاف الحرب.

أمام تلك الثورة العارمة والتمرد العسكرى، طلب ماكس من القيصر التنازل عن العرش، فرفض عدة أيام، ثم تنازل عن العرش لحفيده، ثم استقال ماكس وخلفه فى منصب المستشار إيبرت زعيم الحزب الاشتراكى اليمينى وكان مشتركًا فى حكومة ماكس، فأعلن قيام الجمهورية الألمانية.

الهدنة:

حدثت هذه الأحداث الداخلية فى ألمانيا والهزائم تتوالى على القوات الألمانية، وقد أبلغ الرئيس ولسن الحكومة الألمانية أنها تستطيع طلب الهدنة من الجنرال فوش القائد العام لجيوش الحلفاء، وعقدت هذه الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ والتى انهت الحرب العالمية الأولى.

لقد أدت عوامل عدة لهزيمة ألمانيا، وأولها نقص الرجال، فقد فقدت فى هذه الحرب عددًا رهيبًا من رجالها، وكذلك كان الحال مع البريطانيين والفرنسيين، ولكن أمريكا عوضت بالنسبة للحلفاء، إلى جانب أن ألمانيا عانت من نقص الغذاء والمعدات واضطراب جبهتها الداخلية، مما كان له أثره فى إضعاف الروح المعنوية للجنود.

والحقيقة الواقعة أن المانيا لم تقهر إلا بعد أن جاءت الإمدادات من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا وحده يكفى دليلًا على قوتها وشدة بأسها.

الفصل الخامس

ألمانيا والحرب العالمية الثانية

ألمانيا النازية:

يعتبر ظهور النازية فى ألمانيا السبب الرئيسى لقيام الحرب العالمية الثانية ويبدأ الحكم النازى فى ألمانيا منذ تولى أدولف هتلر منصب مستشار ألمانيا فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ وقد مهدت الظروف التى مرت بها ألمانيا منذ سقوط القيصرية إلى وصول هتلر إلى هذا المنصب.

ألمانيا بعد معاهدة فرساى:

تولت جمهورية فيمار عقد الصلح مع الحلفاء، وقد ارتبطت هذه الجمهورية بالهزيمة ورغم أن حالة المانيا لم تكن تسمح لها إلا بطلب الصلح، لكن الحزب النازى أخذ يبث دعايته فى أن ألمانيا لم تهزم عسكريا وأن الاضطرابات الداخلية والخيانة أدتا إلى هزيمة ألمانيا، وكان الموقف الحزبى عندما قامت الجمهورية موزعا بين قوى ثلاث.

- الظبقة العاملة: ويمثلها الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى قبل أنقسامه ثم الحزب الشيوعى بعد ذلك.

- **المحافظون:** أصحاب الأراضى وكبار الرأسماليين والقادة العسكريين وهدف هؤلاء منع تيار الشيوعية فى ألمانيا وقد أضعف من قوة هذه المجموعة هزيمة المانيا ومسئوليتها عن ذلك ويمثل هؤلاء الحزب الكاثوليكى المسيحى ثم الحزب الاشتراكى الوطنى « النازى »

- **البوورجوازية المعتدلة:** وكان هدفها قيام الجمهورية على أساس دستورى ويمثل هذه الطبقة الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى.

وقد أدى الصراع بين هذه القوى الحزبية وعجز جمهورية فيمار عن مواجهة الثورات الاشتراكية إلى ظهور حركة هتلر. فقد كانت النازية الألمانية وهى الحل الاخير فى يد المحافظين ضد احتمالات الثورة الاشتراكية فى ألمانيا.

الموقف السياسى فى ألمانيا ١٩١٩ - ١٩٢٩:

كان الموقف السياسى لألمانيا خلال هذه الفترة يتطور لصالح الجمهورية والحزب الديمقراطى الاشتراكى، وأسفرت انتخابات سنة ١٩١٩ فى ألمانيا عن جمعية تأسيسية قامت بوضع دستور لم تكن هناك فرصة للحكم عليه، وانتخب إيبرت زعيم الحزب الاشتراكى اليمينى - وكان مشتركا فى حكومة ماكس رئيسا للجمهورية (جمهورية فيمار) ورغم اعتدال هذه الحكومة فإن الأحداث فى ألمانيا أدت إلى عدم تمتع هذه الحكومة بالشعبية، والحقيقة أنه كان لمعاهدة فرساى تأثير عظيم على شئون ألمانيا الداخلية، فقد عانت ألمانيا من الانقسامات وارتفاع الضرائب إلى جانب عبء التعويضات وقد لاقت جمهورية فيمار المصاعب على يد الشيوعيين فهم يرونها ثورة اشتراكية للاستيلاء على الحكم وقد أدت قوة الحزب الشيوعى فى ألمانيا إلى تحالف الحزب

الديمقراطى الاشتراكى مع الأحزاب اليمينية للوقوف أمام الشيوعية.

وقد واجهت جمهورية فيمار العديد من المشاكل التى أضعفتها ومن هذه المشاكل قوة المحافظين فى ألمانيا. ولم تحاول الجمهورية تصفية هؤلاء. حتى بعد أن اتضح تهديدهم لها، فقد قام القائد العسكرى فون لتفتز بالاستيلاء على برلين وحرب إيبرت ولكن لم تستجب الجماهير لهذا القائد. وقامت تنظيمات العمال بإضراب شامل مما أدى إلى سقوط هذا الانقلاب وهرب فون لتفتز إلى السويد وعاد إيبرت مرة أخرى إلى رئاسة الجمهورية. وكان الكثير من رجال هذه الطبقة - المحافظة - يحتلون مناصب هامة ويكرهون النظام الجمهورى.

كذلك أضعف حكومة فيمار موقف فرنسا من عجز ألمانيا عن سداد التعويضات، فقد وقفت فرنسا من ألمانيا فى أغلب الأحيان موقفا متشددا لا يقبل المساومة، ولسوء حظ ألمانيا أنه كلما جاءت حكومة فرنسية معتدلة صاحب ذلك وجود حكومة ألمانية متشددة مما جعل التقارب أمرًا بعيد الاحتمال وقد قامت فرنسا باحتلال أقاليم الراين ووادى الرور وذلك لاستغلال مناجمه مقابل التعويضات وكان ذلك إذلالا لألمانيا وأعلنت إنجلترا أن هذا الاحتلال غير مشروع وأقرت أنه يتنافى مع معاهدة فرساى، وكان غرض فرنسا القضاء على اقتصاديات ألمانيا حتى تأمن من تهديدها لها.

أما أخطر ما واجهته الجمهورية من مشاكل فكانت مشكلة التضخم النقدى، وقامت ألمانيا بإصدار كميات من المارك وأدى ذلك إلى انخفاض قيمة المارك الألمانى وانهيار الحالة الاقتصادية.

ورغم هذه العوامل القاسية فقد استطاعت الحكومة منذ سنة

١٩٢٤ .- إصلاح أحوالها المالية وضبط ميزانيتها، وإن اتبعت طرقا قاسية مع الشعب كفصل عدد من الموظفين وتخفيض المرتبات عامة، واتبعت ألمانيا سياسة التفاهم مع الحلفاء وخاصة فرنسا حتى يقف الحلفاء فى جانب مساعدة ألمانيا بدلا من القضاء عليها، ويرتبط بهذه السياسة ستريسمان مستشار الجمهورية الألمانية ووزير خارجيتها منذ سنة ١٩٢٤، وكانت إنجلترا من أنصار سياسة عدم إرهاق ألمانيا.

وقد برزت فى سنة ١٩٢٤ فكرة التخلص من التقدير الجزافى للتعويضات وربط هذه التعويضات بالواقع وذلك بمقتضى مشروع داوز - وداوز هو الخبير الأمريكى الذى رأس اللجنة المتفرعة من لجنة التعويضات لبحث حالة ألمانيا وإمكانياتها فى دفع التعويضات، ونظرت هذه اللجنة فى هذا الموضوع على أساس تنظيم مالية ألمانيا فاقترحت سرعة انسحاب الفرنسيين من الرور وإنشاء بنك مركزى يحتكر الأوراق المالية لمدة طويلة إلى جانب تقديم الحلفاء لألمانيا قرضا مقدارة ٨٠٠ مليون مارك من الذهب وقد وافق الحلفاء على ذلك كما وافقت ألمانيا أيضا مما أدى إلى تحسن أحوال ألمانيا الاقتصادية وقد قوى مركز الجمهورية فى ألمانيا فيما بعد توقيع معاهدة لوكارنو فى ديسمبر ١٩٢٥ ودخولها فى عصبة الأمم سنة ١٩٢٦. وقد توفى إيبرت سنة ١٩٢٥، وخلفه الماريشال هندنبرج رئيسا للجمهورية. ولم يكن هندنبرج اشتراكيا بل كان ملكيا. وقد تطلع الألمان فى ذلك الوقت إلى حكم الفرد، فرغم تحسن الأحوال الاقتصادية فإن ألمانيا كانت تئن من الاذلال واليأس بعد أن انحدرت إلى دولة صغيرة وتحدد جيشها بمائة ألف إلى جانب التدخل الدائم فى شئونها.

الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ وتأثيرها على ألمانيا:

استطاعت ألمانيا فيما بين سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٩ أن تحقق تقدما واضحا فى نشاطها الاقتصادى، فاستعاد المارك قيمته النقدية وتدفقت رءوس الأموال الأجنبية وخاصة الأمريكية للعمل فى الصناعة الألمانية، ولكن الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ أدت إلى سحب الولايات المتحدة الأموال التى أقرضتها لألمانيا مما أدى إلى إغلاق الكثير من البنوك الألمانية وأغلق عدد كبير من المصانع الألمانية، وتفشت البطالة، وأدى ذلك الى عودة النشاط الشيوعى بدرجة كبيرة كما أدى إلى ضعف الجمهورية وذلك لعجزها عن مواجهة الأزمة الاقتصادية وايجاد الحلول لها.

أمام ضعف الجمهورية وازدياد النشاط الشيوعى اتجهت البورجوازية الألمانية وأصحاب الصناعات الكبرى وكبار الملاك الزراعيين إلى تشجيع ومساندة الحزب الاشتراكى الوطنى برئاسة هتلر الذى كان قد أعلن عن مبادئه وتتلخص فى:

- بعث الأمة الألمانية وإحياء مجدها العسكرى.
- القضاء على الحركة الشيوعية.
- سحق اليهود.
- تأسيس حكومة أكثر قوة وحزمًا تستطيع أن تتخلص من المعاهدات القائمة.

فلسفة النازية:

اشتملت فلسفة النازية على نظرية سيادة الجنس الجرمانى وكذلك الزعامة المسئولة.

وقد ظهرت كتابات عن نظرية سيادة الجنس بعد منتصف القرن التاسع عشر بقليل فقد أصدر آرثر دى جوبينو وهو نبيل فرنسى كتابا عنوانه «عدم المساواة بين الأجناس البشرية» وكان الكاتب نورماندى الجنسية وجعل موضوع كتابه أن الأجناس النوردية تتمتع بتفوق هائل على كافة الأجناس الأخرى سواء فى الأخلاق أو القدرة الذهنية، ومعنى ذلك أن فرنسيا مجد سياسة تفوق الجنس الألمانى.

كما نادى أيضا هوستون تشمبرلين، وهو إنجليزى أقام فى ألمانيا وحصل على الجنسية الألمانية فى كتابه «أسس القرن التاسع عشر» بأن الشعب الألمانى هو فى نظره أسمى الشعوب التى تمثل الجنس التيوتونى وأن هذا الجنس يشمل الى جانب الألمان الكلتيين والاسكنديناويين والإنجليز، وهو يقرر أن مستقبل الجنس البشرى فى يد الألمان متى توفر لديهم الوعى لذلك ويرى البعض أن هتلر استمد الكثير من آرائه ومعتقداته من هذا الكتاب رغم ماجاء به من مديح للحرية يتناقض مع مبادئ النازية، أما عن فلاسفة النازية فقد كتب الفريد روزنبرج سنة ١٩٢٢ عن مبادئ الحزب الاشتراكى الوطنى، كما كتب برجمان وأدولف هتلر «كفاحى».

أما فلسفة النازية فهى أن الحضارة الحديثة تقوم على النظام اليهودى العالمى وأن هذه الحضارة تنكر البطولة وترفض الصراع من أجل الحياة فتحرم الإنسان من صفات النبل والشرف فهى حضارة منحلة ويجب القضاء عليها لبعث حياة إنسانية أفضل، وعملية القضاء على الحضارة اليهودية العالمية والبعث الجديد لا يمكن أن يقوم بها إلا جنس بشرى متميز عن باقى الأجناس كتبت له السيادة على اجناس العالم وهذا

الجنس هو الجنس الجرمانى، أما الأداة فهى الحزب الاشتراكى الوطنى، أما الخطة فهى أن يسود هذا الحزب فى ألمانيا ثم يسود أوربا ثم باقى العالم بعد ذلك وسيادة العالم تتطلب سيادة ألمانيا وسيادة ألمانيا تتطلب سيادة الحزب الوطنى الاشتراكى وسيادة هذا الحزب تتطلب سيادة زعيم هذا الحزب، وهى الزعامة المسئولة عند النازيين (الفوهرر) بمعنى تركيز السلطة كلها فى يد شخص واحد مطلق التصرف يطيعه الشعب طاعة تامة، كما كان يرى هتلر وجوب أن تكون الحكومة فى أيدى نخبة من الأقوياء اما عن سيادة الجنس الجرمانى فقد ابتدع النازيون نظرية وزعموا بمقتضاها اجناس العالم لى درجات وطبقات ووضعوا فى الدرجة الأولى جرمان الدولة الألمانية ويليهم فى نفس الدرجة الجرمان خارج حدود المانيا، ثم النورديون فى الشمال، ثم أهالى الأراضى المنخفضة والنورمانديون ثم الانجلوسكسون، يلى ذلك التورانيون ومنهم الأتراك ثم المجريون والبلغار ثم الساميون وهم العرب واليهود ويلى هؤلاء مباشرة الزنوج وهم الطبقة السفلى طبقا للنظرية النازية، أما كراهية هتلر لليهود فترجع بالدرجة الأولى إلى تمجيد الجنس الآرى، وقد ألصق هتلر مسئولية الكوارث التى حلت بألمانيا باليهود وأنهم أصبحوا بعد الحرب قادة البلاد رغم أنهم لم يتولوا القيادة أبدًا وقت الحرب وكان هتلر يعتبرهم مسئولين عن تدنيس الدم الألمانى وهم فى نظره أمة من الطفيليات.

- أدولف هتلر:

ولد هتلر فى النمسا سنة ١٨٨٩ وتوفى والده قبل أن يتم تعليمه فرحل إلى فيينا واشتغل نقاشًا ورساماً للبناء وأثناء وجوده فى فيينا قرأ الفلسفات السياسية وقد خلص من قراءاته باعتناق النظرية اللاسامية القائمة على

كراهية العناصر السامية وخاصة اليهود كما انتهى إلى كرهه للماركسية.

وقد اشترك هتلر فى الحرب العالمية الأولى وكان فى اعتقاده أن ألمانيا لم تهزم عسكريًا، ولكن هزمتها الخيانة وتفكك جبهتها الداخلية وقد ظهرت النازية أو الاشتراكية الوطنية فى النمسا سنة ١٩١٨ حين كان هتلر يخدم فى الجيش الألمانى وقد رأى هتلر انهيار السلطة وفرار الإمبراطور وتمرد الأسطول كما رأى المجالس المشتركة من الجنود والعمال، وأرجع هتلر ذلك إلى ضعف القيصر وإلى المجالس التشريعية واتحادات العمال، ومن ثم كان من الضرورى إخضاع هؤلاء جميعا إلى زعيم واحد.

وبعد انتهاء الحرب عاد هتلر وأقام فى ميونخ وأكمل تعليمه السياسى وكانت بافاريا معقلاً للمعارضة للحكومة، وقدلاحظ هتلر احتلال اليهود للمراكز الهامة فى المجتمع والسياسة، كما أعجب هتلر بالجيش الجديد الذى استحدثته ألمانيا بعد معاهدة فرساى ويتصف جنوده بالتدريب والنظام كما كان بعيدًا عن السياسة.

وألف هتلر حزب العمال الألمان سنة ١٩٢٠ من الجنود والعمال والطلبة. وقد عرض هتلر برنامجه فى سنة ١٩٢٠ ثم اتخذ هتلر منذ سنة ١٩٢١ من بافاريا مركزا لنشاط الحزب الاشتراكى الوطنى، وقد حاول القيام بثورة فى ٩ نوفمبر ١٩٢٣ على أساس الزحف بعد ذلك إلى برلين وقلب الحكم ولكن فشلت محاولته وأصيب بالرصاص فى ذراعه ثم اعتقل وحكم عليه بالسجن خمس سنوات قضى منها تسعة أشهر فقط كتب فيها كتابه كفاحى الذى طبع لأول مرة سنة ١٩٢٥.

وبعد الإفراج عن هتلر أخذت القوى اليمينية تمده بالمساعدة والأموال فأخذ ينظم حزبه وذلك على أساس التنظيم العسكرى للحزب

بحيث يمثل فرقا عسكرية مسلحة تدين بالطاعة الكاملة لرئيس الحزب، ومن أهم تنظيمات الحزب الوطنى الاشتراكى فرق العاصفة وتضم شباب الحزب، وذلك للدفاع عن اجتماعات الحزب ومهاجمة الشيوعيين.

أخذ هتلر فى نشر مبادئ حزبه فى كل المانيا وأحرز فى سنة ١٩٣٠ نجاحًا واضحًا فى الانتخابات، وفى يوليه سنة ١٩٣٢ نال حوالى ٣٨٪ من جملة أصوات الناخبين، وقد انتهت مدة رئاسة هندنبرج للجمهورية فى هذه السنة ودخل هتلر منافسا له فى انتخابات الرئاسة ولكن هندنبرج فاز بالرئاسة، واختار هندنبرج فرانزفون بابن وهو يمينى متطرف مستشارا لألمانيا فحل البرلمان.. وكان الصراع بين الشيوعيين وهتلر على أشده ودخل الطرفان الانتخابات واستطاع هتلر أن يضاعف عدد نوابه فى هذه الانتخابات، وواجه بابن مشكلة الأغلبية غير المؤيدة فحل المجلس مرة أخرى وأجريت الانتخابات فى نفس العام وأسفرت عن فوز الشيوعيين بعدد أكبر من النواب، ونقص عدد نواب الحزب النازى وأمام هذا الخطر الشيوعى استدعى هندنبرج هتلر ليتولى منصب المستشارية فى ٣٠ يناير ١٩٣٣ وهو بداية الحكم النازى فى المانيا.

الحكم النازى فى ألمانيا:

كان أول ماقام به هتلر هو حل البرلمان وذلك للقضاء على المعارضة ودعا إلى انتخابات جديدة واستطاع هتلر خلال شهر واحد استخدام كافة وسائل الارهاب للقضاء على معارضيه وقبل موعد إجراء الانتخابات بخمسة أيام احترق مجلس الريشتاغ وأتهم هتلر الشيوعيين بذلك وازداد العنف النازى ضدهم. وأجريت الانتخابات وحصل الحزب النازى على ١٦ مليون صوت بنسبة ٤٣،٩٪ من الأصوات!

اجتمع المجلس وطلب هتلر سلطات استثنائية دكتاتورية لمدة أربع سنوات ووافق المجلس، وانفض بعد ذلك. واتجه هتلر إلى إقامة حكومة الحزب الواحد، وحلت الأحزاب الألمانية نفسها خشية من هتلر عدا الحزب الشيوعى والاشتراكى الديمقراطى وفى ١٤ يوليو سنة ١٩٣٣- أصدرت حكومة هتلر قرارا بأن الحزب النازى هو الحزب الشرعى الوحيد فى المانيا وبذلك حل الحزبين الآخرين.

واتجه هتلر بعد ذلك إلى تركيز السلطة فى يده وكانت المانيا مقسمة إلى ولايات تتمتع بحكم ذاتى لها برلماناتها فألغى هتلر هذا النظام، ووضع بدلا منه نظام حكام الولايات.

اتجه هتلر بعد ذلك إلى تطهير الحزب النازى من خصومه وكانت هذه الخصومة بشأن اختلاف وجهات النظر حول تنفيذ برنامج الحزب، وكان هتلر يرى التدرج فى تنفيذ البرنامج واختلف معه البعض من المطالبين بالتغيير فورا.

لم يبق أمام هتلر إلا خطر داخلى عسكرى، ففرقة العاصفة التابعة للحزب وهى فرقة القمصان السوداء كانت تحت قيادة روم أحد الضباط القدامى وأراد روم أن يدمج القمصان السوداء فى الجيش العامل وبذلك تصبح له السيطرة الكاملة على كل قوات ألمانيا المسلحة ومن ثم يستطيع التخلص من هتلر، وفطن هتلر إلى ذلك وسبقه وأصدر فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٤ أمرا بالقبض على روم وآخرين وأمر بإعدامهم وأصبح هتلر الرجل الأول فى ألمانيا، وفى ٢ أغسطس توفى هندنبرج فأعلن هتلر توليه رئاسة الجمهورية إلى جانب المستشارية، وأجرى استفتاء أسفر عن موافقة الشعب الألمانى على ذلك.

استطاع هتلر أن يوطد أركان حكمه فى ألمانيا واتصفت سياسته الداخلية بتركيز السلطة فى يده والاعتماد على نظام الحزب الواحد، فالدولة هى التى تتحكم فى اقتصاد الدولة وماليتها، وقد اتخذ هتلر إجراءات عنيفة أدت إلى تحسين الصناعة، أما البطالة فقد قابلها هتلر بتجنيد العمال للعمل وتنفيذ برنامج تسليح ضخم.

اتجه هتلر بعد ذلك إلى السيطرة على أوربا وبدأ أولى خطواته فى هذا البرنامج بإعلان انسحاب المانيا من مؤتمر نزع السلاح وعصبة الأمم ليتمكن من تسليح ألمانيا تسليحًا كاملاً.

وتسليح المانيا فى الحقيقة اعتداء على معاهدة فرساى وميثاق لوكارنو، وقد حاولت انجلترا وفرنسا التفاهم مع المانيا حول موضوع التسليح وذلك فى فبراير سنة ١٩٣٥. وذلك بإلغاء الشرط الخاص بتحديد تسلح المانيا من معاهدة فرساى وأن يحل محل ذلك اتفاقيات خاصة بالتسلح عامة واشترطت الدولتان على ألمانيا العودة إلى نظام عصبة الأمم مع عقد محالفات المساعدة المتبادلة مع دول وسط أوربا وشرقها، ورفض هتلر هذه الشروط.

وفى أول مارس سنة ١٩٣٥ أعلن هتلر أن المانيا ستعمل بنظام الخدمة العسكرية الاجبارية وأن يزيد الجيش الألمانى عن ٥٠٠,٠٠٠ جندى وقت السلم واستند هتلر فى إعلانه الى أن معاهدة فرساى قد سقطت وذلك لفشل الحلفاء فى العمل على عدم التسلح العام ، إلى جانب زيادة عدد الجيش الروسى زيادة ضخمة وقت السلم وعودة فرنسا إلى نظام السنتين للخدمة العسكرية، كل ذلك يجعل المانيا مضطرة للدفاع عن نفسها، وقد أعلنت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا الاحتجاج على هذا الاعلان، كما اعلن

مجلس العصبة أن ألمانيا قد هدمت النصوص الخاصة بعدم تسلحها.

فى ٧ مارس سنة ١٩٣٦ أعلن هتلر رفض ألمانيا نهائيًّا لمعاهدة فرساى وميثاق لوكارنو، وتقدم جيش المانى قوامه ٢٠,٠٠٠ جندى واحتل ضفاف الراين.

لقد استطاع هتلر أن يعيد تسليح ألمانيا كما تخلص من معاهدة فرساى واتجه إلى السيطرة على أوربا وباتجاه هتلر إلى هذه السيطرة بدأت مقدمات الحرب العالمية الثانية ممثلة فى الأزمة النمساوية، ومشكلة السودت (الأزمة التشيكوسلوفاكية) ثم أخيرا الأزمة البولندية وقيام الحرب العالمية الثانية، وقد سبق هذه المقدمات للحرب مرحلة فشل عصبة الأمم التى استمرت من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٦.

وعلى أية حال ومع قوة الهجوم الألمانى انهار خط الدفاع البولندى تماما، وبدأت القوات الألمانية الاقتراب من وارسو وفى ١٠ سبتمبر تقهقر الجيش البولندى إلى الجنوب الشرقى. وفى ١٦ سبتمبر احتلت روسيا بعض المواقع فى بولندا الشرقية وذلك باتفاق مسبق من ألمانيا، وبذلك لم يكن أمام بولندا إلا الاستسلام بعد أن حاصرتها قوات ألمانيا وروسيا، وفى ٢٨ سبتمبر سقطت وارسو. وحددت ألمانيا وروسيا مناطق احتلال البلدين فى بولندا.

إنجلترا وفرنسا بعد سقوط بولندا:

على أثر سقوط بولندا عبأت فرنسا جيشها ووضعته فى مراكز الدفاع على طول حدودها الشمالية، أما إنجلترا فقد أرسلت قواتها إلى فرنسا منذ ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ وفى ١١ سبتمبر كان عدد القوات البريطانية فى فرنسا ١٥٨,٠٠٠ جندى وفى ١٥ أكتوبر كان هناك جيشان بريطانيان

على حدود فرنسا وكانت الحدود بين فرنسا وألمانيا محصنة تحصيناً قوياً بواسطة خط ماجينو، ولكن لم يمتد هذا الخط على الحدود الفرنسية البلجيكية، وكانت تحصينات هذه المنطقة ضعيفة لا يمكنها الصمود أمام الجيش الألمانى، وأقام الألمان أمام خط ماجينو خط دفاع هو خط سيجفريد أشبه بخط ماجينو، وكان لاتجاه المانيا إلى بولندا ووجود معظم قواتها فى هذا الهجوم أثره فى عدم مهاجمة فرنسا فى هذه الفترة،أما فرنسا فلم تكن حالتها العسكرية لتسمح لها بالهجوم على ألمانيا.

الاتحاد السوفيتى بعد سقوط بولندا:

كان استيلاء الاتحاد السوفيتى على الجزء الشرقى من بولندا مرحلة من مراحل تدعيم موسكو لمركزها على البلطيق، فقد وقعت استونيا فى ٢٩ سبتمبر معاهدة لتبادل المساعدة مع موسكو حصلت الاخيرة بمقتضاها على قواعد جوية وبحرية طالبت موسكو فنلندا بالتخلى عن عدد من الجزائر فى الخليج وأن تؤجر لها شبه جزيرة ريباكى وثغر تسامو وكذلك ميناء هانجو، وقد رفضت فنلندا هذه المطالب فقام الاتحاد السوفيتى بمهاجمة حدودها فى نهاية نوفمبر، كما أطلقت القنابل على هلسنكى وغيرها من المدن ووقع الهجوم الأخير فى فبراير سنة ١٩٣٠ واضطرت فنلندا إلى قبول شروط موسكو.

غزو النرويج:

اتجهت ألمانيا إلى احتلال النرويج فى بداية شهر أبريل سنة ١٩٤٠ لأهميتها بالنسبة لها وكانت السويد تمد ألمانيا بالحديد الخام وخلال الشهور التى يغلق فيها بحر البلطيق أمام الملاحة كانت تحصل على احتياجاتها

عن طريق ميناء - نارفك النرويجى - وفى ٩ أبريل غزت ألمانيا الدانمرك واحتلتها ثم هاجمت النرويج فى نفس اليوم، وقدمت مطالبها للنرويج التى تعنى السيطرة التامة عليها، ورفضت النرويج مطالب ألمانيا ووعدت إنجلترا وفرنسا بمساعدتها، ونزلت قوة بريطانية قرب نارفك، كما نزلت قوة أخرى من الحلفاء ولكن سحبت هذه القوات بعد ذلك وبقيت قوة من البريطانيين والفرنسيين والبولنديين والنرويجيين فى عملياتها حول مدينة نارفك واستولت هذه القوة على نارفك فى ٢٨ مايو سنة ١٩٤٠ ولكن فى ٨ يونية سحبت معظم القوات المتحالفة من النرويج كما سحبت كمية كبيرة من العتاد، فاضطر الملك وحكومته إلى الفرار من النرويج.

غزو فرنسا:

قامت ألمانيا بغزو الأراضى الواطئة وفرنسا فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠، وكان هذا الهجوم الألمانى متوقعا وأخذت حكومة كل من هولندا وبلجيكا فى إجراءات الدفاع رغم أنهما كانتا على الحياد ورفضتا الاشتراك مع الحلفاء فى اتخاذ أى إجراءات ضد الهجوم الألمانى، ورغم ذلك قررت إنجلترا وفرنسا دخول بلجيكا فورًا فى حالة مهاجمة ألمانيا لهولندا.

هاجم الألمان هولندا وبلجيكا ولكسمبورج بدون إعلان للحرب وفى ١٥ مايو استسلمت هولندا بعد أن تعرضت لقصف وحشى من الطائرات الألمانية، ووقع الهجوم الألمانى على بلجيكا وفرنسا فى وقت واحد، وكانت الجيوش المتحالفة قد أخذت مواقعها داخل بلجيكا، وفى ١٤ مايو اخترقت القوة الألمانية خطوط الدفاع للدول المتحالفة، ثم عبرت نهر ميز ودخل الألمان إميان فى ١٩ مايو ثم كاليه. وفى ليلة ٢٧ - ٢٨ مايو استسلم

الجيش البلجيكى، وتم فى نفس الوقت جلاء القوات المتحالفة عن دنكرك.

تولى الجنرال فيجان الدفاع عن فرنسا كقائد أعلى لجيوش الحلفاء وذلك فى ١٩ مايو وقام بتقوية خطوط الدفاع الفرنسية - خط فيجان - على حدود فرنسا الشمالية والشرقية وفى ٥ يونية هاجمت القوات الألمانية هذا الخط ونجحت فى اختراقه فى ٩ يونية وهددت باريس نفسها، وقررت الحكومة الفرنسية الجلاء عن باريس إلى تور ثم إلى بوردو ودخلت القوات الألمانية باريس.

فى ١٠ يونيو أعلن موسولينى الحرب على بريطانيا وفرنسا وقد طلبت فرنسا من بريطانيا أن تعقد هدنة منفردة مع المانيا ووافقت بريطانيا على ذلك على أن يبحر الأسطول الفرنسى إلى موانى بريطانيا، وقامت الحكومة الفرنسية الجديدة - حكومة المارشال بيتان - بطلب عقد الهدنة من ألمانيا وفى ٣ يولية استولت بريطانيا بالقوة على البوارج الفرنسية فى ميناء بليموث وبورتسموت. وفى ٢٢ يونية وقعت فرنسا الهدنة مع ألمانيا، ثم وقعت الهدنة مع إيطاليا فى ٢٤ يونية وقد قضت شروط الهدنة الألمانية باحتلال ألمانيا لجزء كبير من فرنسا وأن تتحمل فرنسا كل نفقات الاحتلال كذلك نزع سلاح القوات الفرنسية وتسريحها، وكان على فرنسا أن تطلق سراح الأسرى الألمان، وأن يبقى الأسرى الفرنسيون لدى ألمانيا.

أما الجزء غير المحتل من فرنسا فسمح له باستقلال اسمى ونقلت العاصمة إلى فيشى، وقبل جزء كبير من المستعمرات هذه الحكومة وقد قام ديجول بتكوين قوة من المتطوعين الفرنسيين لمعاونة إنجلترا فى الحرب

وتطوع بحارة البوارج الفرنسية الراسية فى الموانى البريطانية للعمل تحت رئاسته وتكونت بذلك حكومتان حكومة فيشى، وحكومة المنفى «الفرنسيون الأحرار».

الصراع الألمانى البريطانى:

بعد هزيمة فرنسا اتجهت المانيا إلى بريطانيا ووجهت هجومها أول الأمر إلى سفنها التجارية، ومنذ نهاية سنة ١٩٣٩ كانت ألمانيا تستخدم الألغام الممغنطة الملقاة من الجو وذلك فى الممرات المائية المؤدية إلى الموانى البريطانية، وكان موقف بريطانيا البحرى حرجا فى سنة ١٩٤٠.

رأس ونستون تشرشل حكومة ائتلافية جديدة فى بريطانيا وهى حكومة واجهت الموقف بشجاعة كاملة، وبدأت المانيا فى يولية سنة ١٩٤٠ القيام بالضغط على بريطانيا وذلك عن طريق هجماتها الجوية على الأهداف البريطانية ثم قامت بضرب المدن الساحلية فى الجنوب الشرقى ثم المطارات ومصانع الطائرات. واعتبارا من ٧ سبتمبر قامت ألمانيا بهجمات نهارية على لندن استمرت حتى نهاية أكتوبر، وكانت خطة المانيا هى إبادة الطائرات البريطانية ولكن صمدت بريطانيا للهجوم الألمانى وفقدت ألمانيا الكثير من الطائرات.

كانت خطة هتلر هزيمة بريطانيا ثم إجبارها على الاستسلام عن طريق الغزو الشامل بعد الهجمات الجوية المتصلة، ولذلك شدد ضرباته وقامت الهجمات الجوية الليلية على لندن واستمرت ٨٢ ليلة متوالية.

ولكن بريطانيا لم تستسلم بل قامت بمهاجمة المدن الألمانية وخاصة مصانع الزيت الصناعى فى غرب ألمانيا والمنشآت الصناعية فى إقليم الرور

والموانى وفى ٢٢ أغسطس ضربت برلين كما هوجمت إيطاليا جوا فى ميلان وتورينو. وهكذا لم تستطع ألمانيا أن ترغم بريطانيا على الاستسلام.

السيطرة الألمانية على البلقان:

فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٠ هاجمت القوات الايطالية بلاد اليونان وذلك من ألبانيا ولكنها فشلت فى احتلالها بل تقدم اليونانيون داخل ألبانيا واتخذ هتلر من الفشل ذريعة للمخطط الألمانى بإدخال البلقان فى نطاق التبعية الألمانية كما أنه يعتبر من ناحية أخرى ضرورة للهجوم على روسيا، وفى ديسمبر بدأ تجمع القوات الألمانية فى النمسا ورومانيا ثم انضمت بلغاريا إلى دولتى المحور واحتلتها القوات الألمانية وفى ٦ أبريل سنة ١٩٤١ غزت المانيا يوغسلافيا التى سقطت فى ١٧ أبريل ثم دخلت القوات الألمانية اليونان، واستسلم الجيش اليونانى فى ٢١ أبريل رغم مساعدة بريطانيا وفى ٢٠ مايو هاجم الألمان جزيرة كريت وسقطت بعد أحد عشر يومًا من القتال العنيف.

الحرب فى أفريقيا:

بدأ الهجوم الايطالى على مصر فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ وذلك حين عبرت القوات الايطالية الحدود المصرية وتقدمت حتى سيدى برانى، وفى أوائل ديسمبر طردت القوات البريطانية الايطاليين من مصر واستولت فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٠ على طبرق وفى مارس تم إخراج الايطاليين من برقة، وفى نفس الوقت كانت القوات البريطانية تتقدم فى الممتلكات الايطالية فى شرق أفريقيا ففى يولية سنة ١٩٤٠ توغل الايطاليون فى كينيا والسودان واجتاحوا الصومال البريطانى وفى يناير سنة ١٩٤١ قام

البريطانيون بهجوم مضاد، وفى ظرف أربعة أشهر من القتال قضى على الامبراطورية الايطالية فى شرق أفريقيا، واستولى البريطانيون على أديس أبابا فى ٦ أبريل سنة ١٩٤١ وعاد هيلاسلاسى إلى أثيوبيا وفى نهاية نوفمبر استسلمت القوات الإيطالية الباقية.

أما فى شمال أفريقيا فقد كان لقرار سحب بعض القوات والعتاد البريطانى لمساعدة اليونانيين أثره فى إضعاف جبهة الحلفاء واستطاعت قوات المحور فى نهاية مارس سنة ١٩٤١ توجيه هجوم ضد القوات البريطانية التى انسحبت إلى مصر بعد ترك حامية للدفاع عن طبرق، وهاجمت القوات البريطانية قوات المحور مرتين بعد ذلك خلال سنة ١٩٤١ ولكنها لم تحقق إلا نجاحا بسيطًا.

وفى يونية سنة ١٩٤٢ قام رومل بهجوم مضاد تقهقرت أمامه القوات البريطانية حتى مرسى مطروح، وفى ٢١ يونية استسلمت حامية طبرق.

الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتى:

استولى الاتحاد السوفيتى بموافقة ألمانيا على بسارابيا وشمال بوكوفينا من رومانيا، ثم ضم استونيا ولاتفيا ولتوانيا - دول البلطيق - ولكن حدث ما يعكر العلاقات بين الدولتين وفقد الاتحاد السوفيتى ثقة ألمانيا، فقبل الهجوم الألمانى على يوغسلافيا بيومين أبلغت موسكو السفير الألمانى بها بأنها قد وافقت على عقد معاهدة صداقة وعدم اعتداء مع يوغوسلافيا، ومنذ ربيع سنة ١٩٤١ حدثت حوادث على الحدود،واشتكت كل من الدولتين لذلك، ثم قدمت موسكو مطالبها إلى المانيا وهى:

- وجوب اعتبار فنلندا داخل منطقة النفوذ السوفيتى.

- عقد اتفاقية خاصة بمستقبل بولندا.
- الاعتراف بمطالب السوفيت فى رومانيا وبلغاريا.
- إعلان أهمية الدردنيل بالنسبة للاتحاد السوفيتى (كانت تركيا قد أعلنت الحياد وحافظت عليه)

ولم يوافق هتلر على هذه المطالب وبدأ فى محاربة الاتحاد السوفيتى وفى ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ بدأ الغزو الألمانى، وكان إلى جانب ألمانيا فنلندا والمجر ورومانيا وإيطاليا، وأعلنت بريطانيا تأييدها للاتحاد السوفيتى ووقعت معاهدة فى ١٢ يولية بين موسكو ولندن بتبادل المساعدة فى الحرب ضد ألمانيا، وهاجمت ألمانيا الاتحاد السوفيتى من ثلاثة اتجاهات. الاتجاه الأول من جنوب بولندا إلى أوكرانيا، والثانى فى اتجاه سمولنسك وموسكو والثالث يخترق دول البلطيق إلى ليننجراد وكان التقدم الألمانى سريعا ووصلت القوات الألمانية عبر دول البلطيق إلى مقربة من ليننجراد فى أكتوبر سنة ١٩٤١، وحاصرت ليننجراد، وكان يهددها شمالا جيش فنلندا، ودام حصار ليننجراد سنة وأربعة أشهر واستطاعت القوات المتجهة إلى سمولنسك الاستيلاء عليها فى يولية وبدأت فى الاستعداد لمهاجمة موسكو، وتم هذا الهجوم فى بداية أكتوبر، وفى نوفمبر بدأ حصارها ثم قام الألمان بهجوم شامل على موسكو ولكن السوفيت تصدوا له وأصبح الألمان على بعد ثلاثين ميلاً من موسكو - وتوقفت العمليات خلال الشتاء واسترد السوفيت بعض المواقع.

أما القوات المتجهة إلى القطاع الجنوبى من الاتحاد السوفيتى فقد تقدمت إلى الداخل فسقطت مدن كييف واودسا وخاركوف خلال سبتمبر وأكتوبر وتوقفت جيوش الألمان على خط نهر دونتز فى أوائل ديسمبر.

لقد انهارت خطوط الدفاع السوفيتية أمام الهجمات الألمانية وأصبحت موسكو ولينينجراد تحت الحصار الألمانى.

وفى سنة ١٩٤٢ بدأ الألمان فى تركيز الهجمات فى الجبهة السوفيتية الجنوبية وبدأ الهجوم فى ٥ يونية وأكملوا غزوهم - لشبه جزيرة القرم وفى منتصف أغسطس وصلوا إلى سفوح جبال القوقاز، ثم انسحبوا من القوقاز وتقدم الألمان مرة أخرى وعبروا نهر دون واقتربوا من ستالنجراد وهاجموا المدينة ولكن السوفيت قاتلوا من منزل إلى منزل ورغم استيلاء الألمان على معظم المدينة فإن خسائرهم كانت فادحة، وفى ١٩ نوفمبر هاجم الجيش الروسى بقيادة زوكوف الجيوش الألمانية المحيطة بستالينجراد واستطاع حصار الألمان، واستسلمت القوات الألمانية المحاصرة فى ٤١ يناير سنة ١٩٤٣.

وفى نفس الوقت انتصر الحلفاء فى شمال أفريقيا فى موقعة العلمين فى أكتوبر سنة ١٩٤٢.

دخول الولايات المتحدة الحرب:

دخلت الولايات المتحدة الحرب بسبب علاقاتها مع اليابان بصفة خاصة وأحداث الشرق الأقصى بصفة عامة. ففى يوليو ١٩٤١ طلبت اليابان من حكومة ڤيشى الحصول على قواعد فى الهند الصينية، وفى أكتوبر ١٩٤١ كانت كل الهند الصينية الفرنسية تحت سيادة اليابان. ثم قامت اليابان فجأة بضرب القاعدة البحرية الأمريكية فى بيرل هاربر، وأعقبت ذلك بإعلان الحرب على الولايات المتحدة وبريطانيا. كما أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة فى ١١ ديسمبر.

وتوالت خسائر الحلفاء فى الشرق الأقصى فقد تحطمت البوارج الحربية للحلفاء أمام هجمات الطيران اليابانى واستسلمت هونج كونج، وكذلك جزائر الهند الشرقية الهولندية لليابان وذلك فى مارس سنة ١٩٤٢ ثم سقطت الملايو وسنغافورة. وبعد إتمام غزو الملايو تقدم اليابانيون إلى بورما وتوغلوا فيها رغم مقاومة الحلفاء وتوقف الهجوم اليابانى بعد ذلك حتى يمكن لليابانيين السيطرة على ما اكتسبوه من هجماتهم.

وقد لاقى اليابانيون النجاح فى المحيط الهادى فهاجموا غينيا الجديدة وجزائر سليمان ولكن الحلفاء وقفوا أمام الهجوم اليابانى واستطاعت أمريكا إنزال الهزيمة باليابان فى معركة بحرية تجاه جزائر سليمان (معركة بحر المرجان).

الحرب فى شمال أفريقيا:

قرر الحلفاء أن تقوم إنجلترا وأمريكا بغزو شمال أفريقيا الفرنسى وعين أيزنهاور لقيادة العمليات الخاصة بشمال أفريقيا والجنرال مونتجمرى لقيادة عمليات الجيش الثامن.

وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٤٢ بدأ هجوم الجيش الثامن فاخترق خطوط دفاع روميل فى العلمين، واستطاع إحباط الهجوم المضاد الألمانى ودخل طبرق فى ١٢ نوفمبر، وواصل مطاردته لروميل فى ١٤ ديسمبر، وتوقف الألمان عند البويرات، وفى أوائل يناير سنة ١٩٤٣ سقطت طرابلس فى يد مونتجمرى وانسحب روميل إلى ما وراء حدود تونس.

وفى منطقة شمال أفريقيا الفرنسية لم تلق القوات البريطانية والأمريكية مقاومة فرنسية تذكر فى الجزائر ثم انضمت هذه القوات إلى الحلفاء.

وفى ٢٠ مارس اخترق الجيش الثامن خط ماريت، وفى ١٦ أبريل اقتحم هذا الجيش خط الدفاع الثانى لروميل، واتصل بقوات الجيش الأمريكى. وفى ٥ مايو بدأ الهجوم الأخير. وفى ٧ مايو دخلت القوات الأمريكية مدينة بنزرت واستولى الجيش الأول البريطانى على تونس، واستسلمت قوات المحور وبلغ أسرى الألمان والايطاليين ربع مليون جندى.

الحرب فى البحر المتوسط:

بدأ هجوم الحلفاء على البحر المتوسط باستيلائهم فى أوائل يونية سنة ١٩٤٣ على جزيرتى لامبديوزا وبانتلاريا ورغم صغر هاتين الجزيرتين فقد كانتا محصنتين تمامًا - ثم هاجم الحلفاء جزيرة صقلية واستولوا عليها.

وكانت إيطاليا قد تعرضت لأحداث داخلية فقد استقال موسولينى فى ٢٥ يولية وخلفه المارشال بادوليو وشكل حكومة كان غرضها عقد الصلح مع الحلفاء وأودع موسلينى السجن ولكنه أنقذ على يد الألمان ولكنه أسر مرة أخرى وأعدم فى ميلان فى أبريل سنة ١٩٤٥ - وقد عقدت إيطاليا الهدنة فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٣ وكانت شروط الحلفاء الاستسلام بدون قيد أو شرط، وتسلم إيطاليا أسطولها وطائراتها إلى الحلفاء مع ضمان استخدام مطاراتها وموانيها، أما الجيش الألمانى فى إيطاليا فقد احتل روما، وفر المارشال بادوليو وحكومته إلى مراكز الحلفاء وأعلنوا الحرب على ألمانيا، وأصبحت إيطاليا تحارب مع الحلفاء وتوالت هجمات الحلفاء على القوات الألمانية فى إيطاليا حتى انهارت خطوط الدفاع الألمانية واخيرا وقع اتفاق استسلام القوات الألمانية فى إيطاليا للحلفاء بدون قيد أو شرط فى ٢٠ أبريل.

الجبهة السوفيتية:

فى نهاية ١٩٤٢ بدأ الاتحاد السوفيتى يستعيد قوته بعد هزيمة الألمان فى ستالنجراد واضطرارهم إلى التقهقر عن القوقاز واستعاد السوفيت مدينة كورسك شمال غربى ستالينجراد فى فبراير سنة ١٩٤٣ واستولوا على خاركوف ولكن الألمان استعادوها ثانية. وفى الشمال هاجم السوفيت الألمان وتم رفع الحصار عن لينتجراد فى يناير. وفى فبراير تم إنقاذ موسكو.

ورغم هجمات الألمان استطاع السوفيت استعادة مدن خاركوف وتاجانروج ثم استعادوا سمولنسك، وفى نهاية سنة ١٩٤٣ كان الجيش السوفيتى قد حرر فعلا ثلثى الأراضى المحتلة.

وفى يناير سنة ١٩٤٤ اخترق السوفيت فى الجبهة الشمالية خطوط الألمان حول لينتجراد وتقهقر الجيش الألمانى إلى داخل أقاليم البلطيق وتوالى تقدم الروس فى الجبهات الأخرى وفى ١٥ أبريل استولوا على أودسا ثم استعادوا شبة جزيرة القرم، وبدأت الجيوش السوفيتية تقترب من الأراضى الألمانية.

انهيار ألمانيا:

منذ سنة ١٩٤٢ ازداد القصف الجوى على ألمانيا وفى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ هاجمت كولون أول غارة قامت بها الف قاذفة ثم ضربت بقية المدن الألمانية وفى يناير سنة ١٩٤٣ بدأت الولايات المتحدة سلسلة من الهجمات الجوية النهارية قاصدة الأهداف الصناعية.

ازدادت الهجمات الجوية على المنشآت الصناعية الألمانية فى سنة ١٩٤٤ ودمر الحلفاء مصانع الزيت الصناعى وكانت ألمانيا تعتمد عليها بعد استيلاء السوفيت على آبار الزيت فى رومانيا وبولندا.

وفى ٦ يونيو ١٩٤٤ بدأ غزو الحلفاء لغرب أوربا ونزلت قوات الحلفاء على الشاطئ الشمالى لفرنسا ثم سقطت مدن سان بروفانس ونانت واورليان وفى ٢٣ أغسطس تحررت باريس ودخلها ديجول وتوالى سقوط المدن الفرنسية فى يد الحلفاء، ثم سقطت بروكسل فى يد الحلفاء أيضا - ثم توالى هجوم الحلفاء وتحرر جنوب هولندا كما عبر الأمريكيون الحدود الألمانية وهاجموا إقليم السار،وفى نفس الوقت استمر الهجوم السوفيتى على الألمان ووقعت فنلندا الهدنة مع الاتحاد السوفيتى وأعلنت رومانيا أيضا قبولها للهدنة، ثم أعلنت الحرب على ألمانيا وكذلك فعلت بلغاريا وطلبت عقد الهدنة مع الاتحاد السوفيتى وتحررت بلغراد وتعاونت القوات البلغارية مع قوات يوغسلافيا الوطنية بقيادة المارشال تيتو فى مهاجمة القوات الألمانية اثناء انسحابها من البلقان وكذلك تخلت المجر عن ألمانيا ووقعت الهدنة فى يناير سنة ١٩٤٥. وفى اليونان هاجمت القوات البريطانية القوات الألمانية المنسحبة.

وهكذا لم ينته عام ١٩٤٤ إلا واضطرت الجيوش الألمانية إلى التقهقر عن كل ما استولت عليه وانحصرت فى حدودها وطوق الحلفاء المانيا وفى نفس الوقت تقدمت القوات السوفيتية إلى الأراضى الألمانية ووقع الهجوم على برلين فى ١٦ أبريل سنة ١٩٤٥ واستسلمت برلين للقوات السوفيتية فى ٢ مايو بعد معارك رهيبة فى الشوارع والمنازل وانتحر هتلر قبل سقوط

برلين بيومين واستسلمت بعد ذلك الجيوش الألمانية فى شمال غرب ألمانيا وهولندا والدنمارك.

وفى ٧ مايو كان الاستسلام النهائى للقوات الألمانية، ووقع رئيس أركان حرب الجيش الألمانى وثيقة الاستسلام.

الفصل السادس

ألمانيا إلى أين المصير؟

كانت المشكلة الملحة التى فرضت نفسها على الحلفاء المنتصرين هى مصير ألمانيا، وكان الأقطاب الثلاثة: تشرشل وروزفلت وستالين قد توصلوا إلى اتفاق مؤقت فى مؤتمر يالتا (فبراير ١٩٤٥) حول تقسيم ألمانيا. وعندما انتهت الحرب نهائيًّا فى صيف ذلك العام، جاء دور الاتفاق النهائى فى مؤتمر بوتسدام.

وفى هذا المؤتمر الأخير اتفق الأقطاب (هارى ترومان وستالين وأتلى، على أن تمتد الحدود الشرقية لألمانيا على طول الخط الذى يوازى نهرى الأودر Oder والنيس Neisse ويستولى الاتحاد السوفيتى على نصف بروسيا الشرقية، وتستولى بولندا على دانزج وسيليزيا العليا والسفلى وبراندبرج الشرقية ومعظم أراضى بوميرانيا والنصف الجنوبى من بروسيا الشرقية، وتعاد أرض السوديت إلى تشيكوسلوفاكيا. كما أعيدت اللورين والألزاس إلى فرنسا، ومالمدى وبوين إلى بلجيكا.

وقسم المنتصرون ألمانيا أو ما تبقى منها إلى أربع مناطق احتلال تبعا

للوجود العسكرى فى كل قطاع، واحتل الأمريكيون القطاع الجنوبى، واحتل السوفيت القطاع الشرقى، والفرنسيون القطاع الغربى، واحتل الانجليز القطاع الشمالى. أما العاصمة برلين التى كانت فى قلب القطاع السوفيتى، فقد اتفق الحلفاء على تقسيمها إلى أربع مناطق احتلال.

إلا أنه بعد فترة قصيرة، اندمجت القطاعات والأمريكية والإنجليزية والفرنسية فى قطاع واحد، وأصبح هناك قطاع غربى تسيطر عليه الدول الغربية أى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وقطاع شرقى يسيطر عليه الاتحاد السوفيتى. ولكن السوفيت لم يكونوا سعداء بهذا التجمع الألمانى الغربى، لأنهم أدركوا بأن الألمان فى القطاع الشرقى (السوفيتى) سوف يشعرون بعدم الرضا لأن مواطنيهم فى القطاعات الغربية قد حققوا نوعا من الوحدة؛ لذلك وافق السوفيت فى ديسمبر ١٩٤٦ على الاشتراك فى مناقشة بعض المشروعات الرامية إلى خلق وحدة اقتصادية تشمل مناطق الاحتلال، إلا أن التوتر ظل مستعرا بين المعسكرين، وباءت هذه المحاولة بالفشل.

ومع أن الحلفاء الغربيين كانوا يتبعون سياسة التظاهر بالعطف على الشعب الألمانى، ومحاولة صلاح اقتصاده المنهار، إلا أنهم حرصوا أشد الحرص على إتباع سياسة الحزم فى محو كل أثر للنازية، والقضاء على أية حركة تهدف إلى بعث الروح العسكرية فى البلاد واحتفظت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى القطاع الغربى بحق الاشراف على نزع السلاح ومسألة التعويضات والشئون الخارجية.

وقام الحلفاء بمحاكمة اثنين وعشرين من كبار زعماء النازية فى الفترة من نوفمبر ١٩٤٥ وأكتوبر ١٩٤٦، وحكم على اثنى عشر منهم بالاعدام

وعلى سبعة بالسجن لمدد مختلفة وأفرج عن ثلاثة.

وسار كل قطاع من قطاعى ألمانيا فى اتجاه خاص تبعا لعلاقة القطاع الغربى بالحلفاء الغربيين وعلاقة القطاع الشرقى بالاتحاد السوفيتى.

وفى سبتمبر ١٩٤٩ انتخب الدكتور تيودور هيس أول رئيس لجمهورية ألمانيا الاتحادية (القطاع الغربى) واشتملت هذه الجمهورية على أكثر من نصف مساحة ألمانيا قبل الحرب، وعلى مايقرب من ثلاثة أرباع سكان القطاعين الغربى والشرقى. واختارت حكومة ألمانيا الاتحادية مدينة بون الجامعية لتكون عاصمة للبلاد، وأنشىء فيها برلمان الاتحاد بموجب دستور جديد.

واشتدت الحرب الباردة بين الكتلتين، مع قيام حكومة ألمانيا الاتحادية وضع الحلفاء لهذه الدولة نظاما لايقره الاتحاد السوفيتى، وهو إحكام الصلة بين مناطق الاحتلال الغربى (ألمانيا الاتحادية) وبرلين الغربية، وسريان عملة ألمانيا الاتحادية فى ذلك الجزء من برلين، ولذلك قرر الاتحاد السوفيتى فرض الحصار على برلين، وقطع طرق الاتصال بين سلطات الاحتلال الغربى وبرلين حتى لا تنجح إقامة دولة ألمانية غربية مستقلة معادية للاتحاد السوفيتى. ولذلك قطعوا الطريق الذى تستخدمه السلطات الغربية للوصول إلى برلين. وحالوا دون وصول الضروريات كالأغذية والغاز وغيرها، والتى كانت تصل بانتظام من القطاع الشرقى للعاصمة الألمانية، والذى يحتله السوفيت.

ولم تلجأ سلطات الاحتلال الغربية إلى استخدام القوة فى فتح الطريق، بل فضلت استخدام الطريق الجوى لخرق الحصار السوفيتى، وقد نقلت الطائرات الأمريكية والبريطانية الحربية فى عامى ١٩٤٨،

١٩٤٩ نحو مليون ونصف مليون طن من المواد الغذائية والاحتياجات الضرورية إلى المناطق المحاصرة، مما اضطر السوفيت إلى إنهاء الحصار فى مايو ١٩٤٩.

وهكذا قامت دولتان المانيتان ألمانيا الديمقراطية وألمانيا الاتحادية سنة ١٩٤٩، وكلاهما تتبع أحد العملاقين الكبيرين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وسارت كل من هاتين الدولتين فى طريق مختلف، تمليه عليهما ظروف التبعية وظروف الاحتلال.

واستمرت الحرب الباردة قائمة بين المعسكرين تهدأ حينًا وتستعر أحيانا.

ففى يونيو ١٩٦١ اجتمع الرئيس الأمريكى كنيدى مع الزعيم السوفيتى خرشوف فى فيينا، وصرح خرشوف لكنيدى بأن المشكلة الألمانية أصبحت على شفا الانفجار، وقد تناقضت وجهات النظر الأمريكية والسوفيتية بشكل حاد، ولكن هذا اللقاء فتح قنوات الاتصال بين الطرفين على أية حال، غير أن هذا لم يمنع كنيدى من أن يعلن التعبئة الجزئية بمجرد عودته إلى واشنطن، كما قام بأعمال التدعيم العسكرى لمختلف القواعد الأمريكية فى غرب أوربا بسبب تهديدات خرشوف حول برلين. كما أعلن خرشوف بالمقابل وقف أى تخفيضات فى القوات المسلحة وزيادة فى الميزانية العسكرية بمقدار الثلث.

كما أثار خرشوف من جديد مشكلة برلين فى جنيف فى نفس العام (١٩٦١) واقترح أن القوات التى ترابط فى برلين، يجب أن تكون من الدنمرك أو النرويج، أو بلجيكا، أو هولندا، وكذلك من بولندا وتشيكوسلوفاكيا، وأن تعمل هذه القوات تحت علم الأمم المتحدة، وهو

العرض الذى رفضته الولايات المتحدة فى الحال. ورد الاتحاد السوفيتى بأنه سيضطر إلى تسوية الوضع فى برلين بدون اشتراك القوى الكبرى وازدادت الأمور حدة حينما تدخل السوفيت فى مواصلات برلين الغربية، وبعد سلسلة من الاتصالات بين خروشوف وكيندى، أنهى خروشوف الموقف تماما حينما قام فى ١٣ أغسطس ١٩٦١ بفصل شطرى برلين بجدار كبير يقسم المدينة إلى قسمين وبشكل بدا نهائيا. وهكذا سار كل قسم من الدولة الألمانية التى كانت (موحدة) فى طريق خاص يختلف عن القسم الآخر فقد سارت المانيا الاتحادية على أسس النظام الرأسمالى السائد فى كل أوربا الغربية وسارت ألمانيا الديمقراطية على أسس النظام الاشتراكى كبقية دول أوربا الشرقية والراضخة تحت الهيمنة السوفيتية، وعسكرت قوات مسلحة من قوى الحلفاء فى ألمانيا الاتحادية وعسكرت القوات السوفيتية فى ألمانيا الديمقراطية وساد الاعتقاد بالقطيعة الدائمة بين الألمانيتين إلى أن ظهر على المسرح السياسى الزعيم السوفيتى جورباتشوف، ونادى بالإصلاح والتغيير.. بالبيريسترويكا. فما هى هذه النظرية الجديدة القادمة من موسكو؟

البيرويسترويكا هى الدعوة إلى التغيير وانتهاج سبل جديدة فى التفكير، ويعنى ذلك التغيير الشامل فى السياسة والاقتصاد والعلاقات الدولية، والحياة الثقافية.

ويمكن أن نحدد معالم الفكر الجديد فى الاتحاد السوفيتى، والذى انعكس بصورة واضحة على الكتلة الشرقية بصفة خاصة، بل على العالم كله بدرجات متفاوتة بصفة عامة يمكن أن يحدد هذا الفكر فى عدة أمور رآها جورباتشوف لازمة لإرساء قواعد هذا التغيير، والأمر الأول هنا هو

تأكيد أهمية التعاون الدولى، وهذا تفكير جديد، باعتبار أن التعاون من وجهة نظر الاتحاد السوفيتى، كان مقصورا على داخل الكتلة الشرقية والمجتمع الاشتراكى، وأنه لاتعاون مع «الذئاب الرأسمالية» حقيقة بدأ خرشوف فى بداية الستينات «التعايش السلمى» مع الغرب، ولكن لم يتقبل «الرفاق» فى الكتلة الشرقية والصين فى ذلك الوقت هذا الاتجاه بالقبول. كما أن جبال الجليد بين المجتمعين الرأسمالى والاشتراكى ذابت قليلا مع الوقت ووقعت زيارات بين الطرفين، وتأكدت هذه التهدئة بالوفاق السوفيتى الأمريكى الذى بدأ فى عام ١٩٧٢، ولكن البيريسترويكا أكدت على حتمية التعاون الدولى، وهذا هو الجديد، فالشرق لاينفصل عن الغرب بصرف النظر عن اختلاف النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فالكل يعيش فى عالم واحد ويواجه مصيرا مشتركا.

كما أن الأمر الثانى الذى تسعى البيريسترويكا إلى تحقيقه هو تحقيق الكفاءة الاقتصادية، وهذا الأمر مرتبط ارتباطا وثيقا بالأمر الأول فالتعاون الدولى - فى رأى جورباتشوف - أمر حتمى وكذلك فإن الكفاءة الاقتصادية ضرورة وإلا تخلف الاتحاد السوفيتى عن الركب، وهذه الكفاءة الاقتصادية تتطلب تعديلاً فى أساليب الإدارة وانفتاحًا واعترافًا بأوجه القصور، ومحاولة تلافى السلبيات المختلفة.

أما الأمر الثالث والمرتبط بالأمرين الأول والثانى والذى تسعى البيريسترويكا إلى تحقيقه فهو العمل على إضفاء مزيد من الديمقراطية.. وبطبيعة الحال فإن الحديث عن الديمقراطية لايعنى أنها شىء محدد المعالم، لأن الديموقراطية كلمة لها مفاهيم مختلفة بالنسبة للدول والمجتمعات،

وهناك الفروق الضخمة بين الكلمات والأفعال.. بين النظرية والتطبيق، ومع ذلك فإن البيريسترويكا بإعادة طرحها لقضية الديمقراطية يعيد للاشتراكية حيويتها، فالاشتراكية ليست مناقضة للديموقراطية وبالتالى يحاول جورباتشوف أن يعقد مصالحة بين الاشتراكية والديموقراطية.

إن هذه الأفكار الجديدة التى بثها الزعيم السوفيتى فى كتابه البيريسترويكا، لم تكن أفكارا فقط، أو دعوة خيالية،لأن الزعيم السوفيتى بدأ فى تطبيق آرائه «وسمح» لها بالانتشار داخل الكتلة الشرقية، وتأثرت تلك المجموعة بدرجات مختلفة، فإذا كانت الصين وألبانيا قد تقبلتا تلك الأراء بالصمت فى مرحلة، وبالهجوم الصارخ فى مرحلة أخرى، فان بقية العالم الاشتراكى لم يقف صامتاً ولا مهاجما فقد حوكم وأعدم الرئيس الرومانى شاوشيسكو بتهمة الفساد وتدمير الأمة،

أما فى المانيا الديموقراطية فقد تم إبعاد الزعيم هونيكر وأصدر العهد الجديد قرارا بمحاكمته، وإن كانت حالته الصحية قدلاتسمح بذلك.

ولكن ألمانيا الديموقراطية،لم تعتبر البريسترويكا فقط هى دعوة للتعاون الدولى لتحقيق الكفاءة الاقتصادية وإرساء قواعد الديمقراطية، بل أنها انطلقت من هذه المفاهيم العامة إلى هدف محدد.. وهو الحرية، حرية التنقل، وحرية الاتصال بالعالم عامة، وألمانيا الاتحادية خاصة.

وتلاحقت الاحداث بسرعة مذهلة، واستقالت حكومة ألمانيا الديموقراطية التى تضم أربعة وأربعين وزيرًا، وظهرت على السطح وجوه جديدة بعد سنوات طويلة من الرقابة وعدم التجديد.. ثم أعقب ذلك القرار الخطير المتمثل فى فتح الحدود مع ألمانيا الاتحادية، وهكذا تدفقت مجموعات كبيرة من الألمان الشرقيين عبر سور برلين الشهير الذى ظل

قائمًا لمدة ثمانية وعشرين عاما كحاجز خطير بين الألمانيتين وكعائق فى سبيل تلاقى الشعب الألمانى الواحد.

إن الحقيقة أنه منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية لم تشهد أوربا حركة تنقلات واسعة من أوربا الشرقية فى اتجاه الغرب مثل هذه الموجة الأخيرة التى بدأت منذ شهر سبتمبر ١٩٨٩، وساعد على ذلك وبصفة أساسية أن قانون ألمانيا الغربية يضمن الجنسية الألمانية (الغربية) لكل الألمان سواء كانوا مواطنى ألمانيا الديموقراطية أو من الأقليات الألمانية المنتشرة فى دول أوربا الشرقية، وهناك من يتوقع أن يصل فى العام الحالى (١٩٩٠) نحو ٣٠٠,٠٠٠ ألمانى من أوربا الشرقية إلى ألمانيا الاتحادية لأن القانون يوفر للاجئين المنحدرين من أصول ألمانية معاملة خاصة بالنسبة للسكن والعمل، وظاهرة الهجرة من ألمانيا الديمقراطية إلى ألمانيا الاتحادية تعود إلى عام ١٩٤٩ حين أنشئت دولة ألمانيا الديمقراطية، واستمرت الهجرة إلى الغرب حتى إقامة سور برلين سنة ١٩٦١.

ولكن الجديد فى الأحداث الأخيرة أنها أدت إلى فتح ملف قضية الوحدة الألمانية من جديد..

إن مسألة الوحدة الألمانية ترتبط بمجموعة من التوازنات الدولية والتى تقوم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والواقع أن دول أوربا الغربية لم تنس بعد دور ألمانيا فى إثارة الحربين العالميتين الأولى والثانية، ويؤكد ذلك تلك الصيحات فى كل من باريس ولندن محذرة من إعادة توحيد ألمانيا، لأن هذا التوحيد سيؤدى إلى مولد عملاق اقتصادى فى قلب أوربا يفوق فى قوته بريطانيا وفرنسا معًا، ويكفى أن نعلم أن مجموع سكان الألمانيتين ٧٨ مليون نسمة،وتبلغ أعداد القوى البشرية العاملة فيها ٣٧ مليون

نسمة ويبلغ مجموع الدخل القومى فى الدولتين ٨٥٤ مليار جنيه استرلينى سنويا أو ضعف الدخل القومي لأى دولة من دول السوق الأوربية المشتركة.

ولا يمكن - على أية حال - إغفال دور السوفيت بالنسبة لمشروع الوحدة الألمانية، وقد يكون جورباتشوف قد عبر تعبيرا دقيقًا عن الموقف بقوله بأنه يقبل تشكيل حكومة غير شيوعية فى ألمانيا الديمقراطية بشرط أن تبقى عضوا فى حلف وارسو.

إن المتغيرات الدولية المعاصرة تسير بسرعة فلكية تجعل المؤرخين يلهثون وراءها لتعقب جذورها وتحليلها وما كان حلمًا بالأمس أصبح واقعا اليوم، وقد تتحقق الوحدة الألمانية من جديد طبقا لتلك المتغيرات*، وعلى العالم ككل حينئذ أن يعيد ترتيب سياساته واقتصادياته لمواجهة هذا العملاق العسكرى والاقتصادى الجديد.

---

* تمت الوحدة بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الاتحادية فى ١٩٩٠/١٠/٣.. وبذلك تكون توقعات الدكتور جاد طه قد تحققت. دار المعارف

الفهـرس

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور
الإمام المراغى	أنور الجندى
ابنت قسطنطين	محمد سعيد العريان

طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابى
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

رقم الإيداع		۹۱۷۸ / ۱۹۹۰
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3124 – X	ISBN

۱ / ۹۰ / ۹٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

فى مدة وجيزة من عمر الزمن، عبر الألمان الشرقيون سور برلين ثم حطموه. ومع رياح التغيير التى جاءت بها البيريسترويكا من موسكو. والوفاق بين روسيا وأمريكا ومحاولة إقامة أوربا الموحدة ومع استفحال اليابان كعملاق اقتصادى، كان لابد أن تتحقق الوحدة الألمانية مرة أخرى. وعلى العالم الآن أن يعيد ترتيب سياساته واقتصادياته لمواجهة ذلك العملاق الاقتصادى والعسكرى الجديد.

مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور جاد طه استاذ التاريخ الحديث والمعاصر وعميد كلية الآداب بجامعة عين شمس ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط والأستاذ الزائر بجامعة ليبزج وجامعة